الحالة السياسية للمدينة المنورة

إبان الحكم الأموي

تأليف

محمد عبد العال أبو بكر

العلم و الإيمان للنشر و التوزيع

الناشر: مكتبة العلم والإيمان

ميدان المحطة - ش الشركات - دسوق - كفر الشيخ

☎ : ٠٤٧/٥٦٠٢٨١

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/٤٤١٣

الترقيم الدولي : ISBN 977-308-023-4

وحدة كمبيو جرافيك (على عطوان وخميس الشيهى)

بمكتبة العلم والإيمان للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى : ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى زميلى وصديقى

إلى الأخ الذى لم تلده أمى

إلى من يرجع إليه الفضل فى أن يرى كتابى النور فتعم الفائدة ويزداد النفع بإذن الله

إلى الأستاذ / محمد مكاوى عوده - مدير عام المكتبات بوزارة التربية والتعليم .

أهدى إليه هذا الكتاب - -

راجيا من الله سبحانه وتعالى أن يضيف جديدا للعلم

والله الموفق

المؤلف



فهرس محتويات الكتاب

*** الفصل الثالث:-**

موقف المدينة من محاولة البيعة ليزيد بن معاوية بالقوة .

المغيرة بن شعبة ودوره فى هذه البيعة – رأى زياد بن أبيه – رأى الأحنف ابن قيس – محاولة أخذ البيعة من كبار أبناء الصحابة – معاوية يأخذ البيعة بنفسه من أهل المدينة ـ كراهية أهل المدينة للبيعة وردهم لها ـ يزيد بن معاوية ومحاولة تأكيد سلطان الأمويين على المدينة.

*** الفصل الرابع:-**

خروج الحسين بن علي وواقعة كربلاء ومقتله.

يزيد يبعث فى طلب البيعة من الحسين وعبد الله بن الزبير ـ عدم تكاتف أبناء الصحابة على رأى واحد فى أمر هذه البيعة خروج عبد الله بن الزبير والحسين من المدينة سراً إلى مكة ـ كراهية بن الزبير لوجود الحسين إلى جانبه فى مكة لتفوقه عليه فى المكانة وحثه للحسين على الخروج إلى الكوفة ـ ذهاب مسلم إلى الكوفة ومقتله ـ خروج الحسين – واقعة كربلاء.

*** الفصل الخامس:-**

ثورة عبد الله بن الزبير وموقف المدينة من حركته:-

خلو الجو لابن الزبير فى مكة بعد مقتل الحسين ـ رفض بن الزبير البيعة ليزيد ، انتصاره على قوات والى المدينة عمرو بن سعيد بن العاص وأسره لقائده عمرو بن الزبير ـ عوامل انتشار

دعوة عبد الله بن الزبير ـ زهد أبناء الصحابة فى الخلافة ٢ـ تعدد ولاة الحجاز وضعف الحامية الأموية به -٣- سياسة الأمويين الاقتصادية فى الحجاز -٤- السخط العام على الحكم الأموى -٥- عبث يزيد وتقوى ابن الزبير -٦- مصرع الحسين - ثورة المدينة وموقعة الحرة - القتال فى الحرة - عبد الله بن الزبير أمير للمؤمنين - هزيمة الأمويين عند المدينة.

*** الفصل السادس :-**

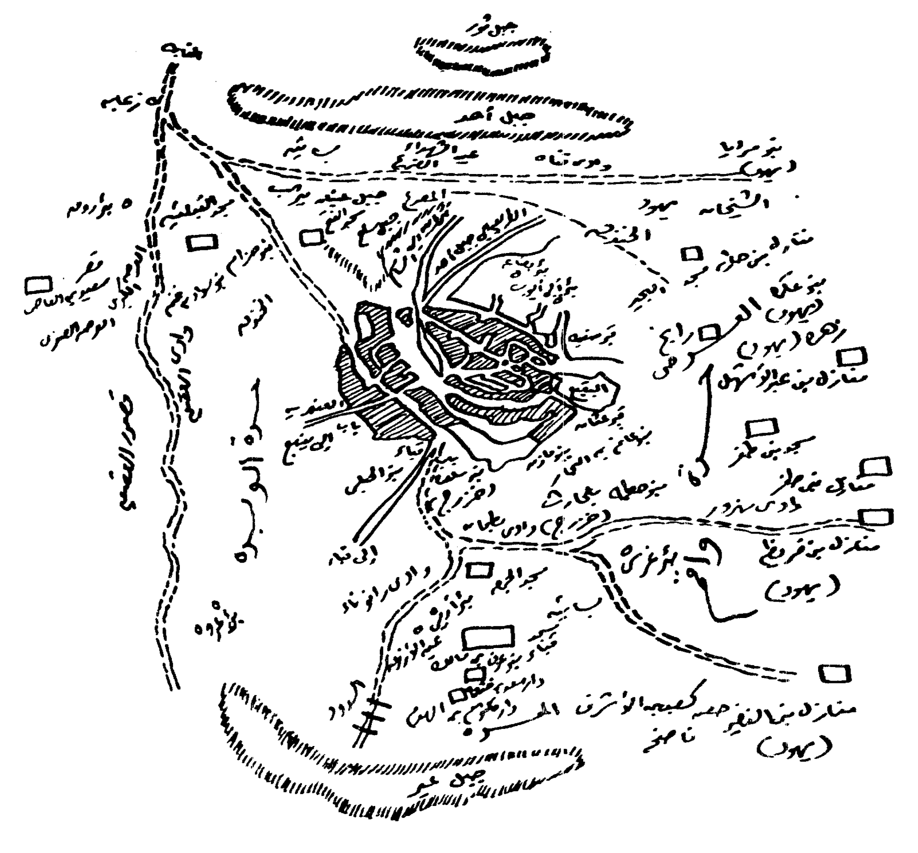
سياسة الولاة الأمويين فى المدينة .

ولاة المدينة معظمهم من البيت الأموى - اختلافهم فى الشدة والعنف وسفك الدماء - قصر مدة حكمهم وتداولهم الحكم على المدينة - موقف مروان بن الحكم من مسألة البيعة ليزيد بن معاوية - محاولته الإيقاع بين الولاة الأمويين من حركة عبد الله بن الزبير - ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة وأعمالة وإصلاحاته وعدله وسياسة الولاة الأمويين المتأخرين على المدينة.

*** الفصل السابع:-**

موقف العلويين والشيعة والدعوة للبيت الهاشمى فى المدينة فى أواخر العصر الأموى.

المدينة مقر البيت الهاشمى - الأمويين يثيرون التنافس والنزاع بين فروع البيت العلوى والهاشمى- ثورة زيد بن على بن الحسين خروجه من المدينة، مقتله فى الكوفة - صلبه فى المدينة - نهاية العصر الأموى.



خريطة أثرية تقريبية
للمدينة المنورة (1)

(1) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول
أحمد إبراهيم الشريف

الفصل الأول

المدينة عاصمة الدولة الإسلامية فى عهد الرسول
والخلفاء الراشدين الثلاثة الأول



الفصل الأول

مقدمة تمهيدية :-

منذ بدء قيام الدولة الإسلامية بهجرة الرسول من مكة إلى المدينة (يثرب) وهى قصبة الدولة ومركز الحكم وحاضرة شبه الجزيرة العربية ، ففيها بنى الرسول المسجد والذى قام محل برلمان الدولة ووضع القوانين الإسلامية القائمة على القرآن والسنة وجعل من هذه القوانين بالإضافة إلى تعاليمه أساساً متيناً ثابتاً لدعائم الدولة الإسلامية والتى بدأت فى المدينة المنورة (يثرب) هذا فضلاً عن مؤاخاته بين المهاجرين أتباعه الذين هاجروا معه من مكة وهم قرشيون وبين الأنصار من أهل المدينة من قبيلتى الأوس والخزرج ، والذين كانوا عماد قوته ونواة دولته ، كما أنه قضى على الخلافات المستحكمة بين الأنصار أنفسهم (الأوس والخزرج) وأبطل الحروب والثارات القديمة والتى كان آخرها يوم بعاث ، وبذلك وحد الرسول عليه الصلاة والسلام قوته فى المدينة وجعل من أهلها شعباً موحداً قوياً متآخيا ، ولضمان ذلك قام بإجلاء اليهود، ذلك العنصر الذى فرض على أهل الجزيرة العربية عامة وعلى المدينة خاصة والذين كان يرجع إليهم الدور الأكبر فى الإيقاع بين الأخوة العرب من الأوس والخزرج من أهل المدينة ليضمنوا تفوقهم وتفرق العرب ، إذ أن اليهود كانوا ثلاث قبائل فى المدينة وهم بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع ، بينما كان العرب قبيلتين ، وقد نجح اليهود فى تفريقهم والإيقاع بينهم حتى جاء الإسلام فوحد العرب وطرد اليهود من المدينة ، هذا وقد

عرفت يثرب وهذا هو الاسم القديم ، منذ هجرة الرسول وتكوين الدولة الإسلامية بها عرفت بالمدينة المنورة وكان قوام أهلها هم الأنصار، غير أنه كان لهجرة الرسول إليها وانتشار الإسلام فى شبه الجزيرة العربية وكونها مركز الحكم وذلك لأن الرسول عليه الصلاة والسلام رفض الإقامة فى مكة بعد أن فتحها عام ٨ هجرية وهى بلده الأصلية التى أخرجه أهله من قريش منها وقفل راجعاً إلى المدينة حافظاً لأهلها كريم مودتهم وخالص نصرتهم فكافأهم بإقامته فى مدينتهم حتى توفى ﷺ عام ١١ هجريه ودفن بها – كان لتلك العوامل أثر كبير فى أن عناصر أخرى غير أهل المدينة الأصليين نزحوا إليها ، من مكة القرشيون (المهاجرون) ومن القبائل الأخرى فى البادية ، حتى أضحى الأنصار سكانها الأصليين من الأوس – والخزرج أقلية ، غير أن سكان المدينة من أنصار ومهاجرين اصطبغوا بصبغة واحدة وتفردوا بشخصية أهل المدينة المنورة والذين كانوا يعتبرون أنفسهم محظوظين فقد احتضنوا الإسلام. وقاموا برعايته ونصرته حتى ترعرع ونما ، وبين ظهرانيهم أقام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبويع أبو بكر الصديق بالخلافة فيها ، وتفوق على منافسه سعد بن عبادة زعيم الخزرج ، وتقبل أهل المدينة تولية أبى بكر عليهم بقبول حسن ، ولم يتعصبوا لزعيم الخزرج اليثربى ، وقنعوا بأنهم لا يزالون قوام الدولة ، وأن مدينتهم مركز الإسلام ومحط الرجاء ومقر الحكم وعاصمة الدولة ففيها يقيم خليفة رسول الله ومنها يعبئ الجيوش ، ويسير الحملات، ويبعث البعوث ، هذا وقد ملأ أهل المدينة الاعتداد بالنفس عندما أفلحوا فى صد غارة المرتدين على المدينة

أثناء غياب أسامة بن زيد فى الشام وبها جل جيـــش المســلمين ، وكانوا درعاً للمدينة ورِدْءا للمسلمين ، وقد خلف عمر بن الخطــاب سلفه أبو بكر فتبلورت شخصية المدينة تبلورا كاملاً ولم يقتصـــر تفوقها على كونها عاصمة للحجاز أو شبه الجزيرة العربية وإنمـــا أضحت عاصمة لدولة مترامية الأطراف تضم ممالك غنية ومدنـــاً عامرة وأمماً ذوى حضارات قديمة عريقة ، فلا غرو أن يتمســـك أهل المدينة بهذه المنزلة التى وصلوا إليها ولا يرتضون بها بديلاً ، فقد عم بينهم الرخاء وقسمت أسلاب الحرب والغنائم بينهم وكـــان من جراء هذا الفيء أن أثرى معظم رجالاتهم وأصبحوا يملكـــون القصور والضياع ويقتنون الذهب والفضة (ما يكسر بـــالفئوس)[١] وقد وضحت ظاهرة الثراء هذه أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان، إذ أنه هو نفسه كان غنيا مثرياً فتشبه به عامة الصحابة وأصبح لهم من الأموال وضروب الثراء الشيء الكثير غير أن الخليفة عثمـــان لم يسر على سياسة سلفه عمر من جمع كبار الصحافة فى المدينـــة لتركيز القوة السياسية والأدبية فيها بل تركهم يقيمون فى الأمصار،

---

(١) فقد روى المسعودى أنه فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عـــن خازنـــه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرها مائة ألف دينـار ، وخلف إبلا وخيلاً كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألـــف فرس وألف أمه. وكانت غله طلحه من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكـان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكة بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس غيرها مـــن الأموال والضياع ، وبنى الزبير داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج ، وبنـــى سعد ابن أبى وقاص داره (بالعقيق) - اسم وادى بالقرب من المدينة - وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلـــها مجصصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائـــة ألـــف درهم. - العقاد عبقرية الإمام على ص ٤٨.

فتركزت فى الأمصار القوة الحربية والاقتصادية للدولة، أما المدينة فلم يكن يتركز فيها سوى السلطة الأدبية للإسلام [١] ثم كانت الثورة على عثمان والتى كانت بداية للفتنة الكبرى التى قاسى الإسلام منها الأمرين ولما يمضى على وجوده نيفا وأربعين عاماً. هذا وقد اشترك أهل المدينة أنفسهم فى الثورة على عثمان ، ولو علموا أن النتيجة الأولى لنهاية عثمان ، هى نهاية للخلافة القديمة فى مدينتهم وأن الخليفة الذى سيخلفه سيتخذ مقره بعيداً عنهم لما قاموا بالثورة ضد عثمان ، غير أن لثورتهم على عثمان عدة أسباب نجملها فى عدة نقاط منها :- أن عثمان كان قد ولى أقاربه فى المناصب الهامة وفى ولاية الأمصار مفضلا إياهم عمن يفوقونهم مقدرة ومكانة [٢] مثال ذلك أن عثمان كان قد عين ابن عمه (أو أخاه فى الرضاعة) عبد الله بن سعد بن أبى السرح رغم أن النبىﷺ كان قد طرده وأباح دمه ثم شفع له عثمان فعفا عنه النبى عليه الصلاة والسلام ، عينه عثمان بدلاً من فاتح مصر عمرو بن العاص والياً على مصر ، ولذلك حقد عليه عمرو ، وهو الرجل الداهية الخطر ، وكان يحرض عليه فى المدينة ، ولعله أيضاً لم يخل من التحريض عليه فى غير المدينة فى مصر مثلاً نظراً لوجود بعض أنصاره وأتباعه القدامى فيها ، هذا وقد ترك أهل المدينة عثمان يلاقى مصيره المحتوم على أيدى الثوار ، لم يدافعوا عنه [٣] وخلوا بين الخليفة وبين المصريين وهم عامة الثوار وبين ما أرادوا أن يفعلوا ولم يتدخلوا لمنعهم ، ولو أنهم أرادوا ذلك

(١) فلهوزن. تاريخ الدولة العربية ص٤٤

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٣ ، ٥٤

(٣) نفس المرجع السابق ص ٥٣ ، ٥٤

يفعلوا ولم يتدخلوا لمنعهم ، ولو أنهم أرادوا ذلك لما شق عليــهم أن يقضوا على مئات قليلة من الثوار ، فأهل المدينـــة بـــدءوا بإثـــارة العاصفة على الخليفة ، وإنما تركوا إتمام الثورة إلى ثوار من غـير أهل المدينة ، بل هم خصوصاً بعض الأنصار ، ســـاعدوا الثـــوار بالفعل. المهم فى ذلك أن الخلافة الجديدة جعلت مقرها بعيداً عـــن المدينة ، وانتقل مركز الثقل فى جزيرة العرب من وســـطها إلـــى أطرافها ، وكان أهل المدينة أنفسهم قد خطوا الخطوة الحاسمة فـــى ذلك ، لأنهم دعوا أهل الأمصار إلى مدينتم وخلوا بينهم وبينـــها ، يفعلون فيها ما يشاءون ، وبذلك تنازل أهل المدينة عـــن ســـيادتهم التى كانت شاملة ، ومنذ ذلك الحين نزلت المدينة عـــن مســـتواها الذى كان لها زمن الرسول والخلفاء الثلاثة الذين خلفوه ، ولم تعـــد عاصمة للدولة ، وكل الجهود التى بذلت لاسترداد مجدها المفقـــود ذهبت سدى ، ولم يبق لها من الشأن سوى إنها أصبحت داراً للثراء الإسلامى الذى صار موضوعاً لمصنفات العلماء ، كما أنها غـــدت ركنا تنذوى إليه الطبقة الساخطة التى تندحر جانباً ، فكـــانت مـــن معزلها هناك تحاول من حين إلى حيـــن أن تصـــل إلـــى تحقيـــق مطامعها . على أن المدينة احتفظت بجاذبيتها من حيث أنها وطـــن لقوم يحبون أن يقيموا أينما شاءوا ، أو لقوم أخفقوا فـــى دورهـــم السياسى ، أو لقوم انسحبوا لأسباب أخرى ، وهكذا صارت مدينـــة أهل الصلاح والديانة مدينة الطبقة الغنية من أشراف العرب الذيـــن أرادوا اللهو ومدينة التسلية والموسيقى والغناء والمجـــون ، كمـــا صارت المدينة ملتقى المغنيين والموســـيقيين والطفيليـــن . وكـــل فصول كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى المتعلقة بهم تقدم لنـــا

الشواهد على ذلك ، ولنذكر منها بنوع خاص ، ما يقال عن أبـــــى قطيفة وعن الأشعب ونوادره المشهورة التى تروى فى كل مناسبة، وخصوصاً عن السيدة سكينة ابنة الحسين وحفيدة الرســـول عليــه الصلاة والسلام ، والتى اشتهر عنها ذكاؤها وتحررها. هــذا ولــم يخلوا تاريخ المدينة فى العصر الأموى من الطفــرات والوثبــات والثورات على الحكم الأموى برغم يأسهم من رجــوع العاصمــة إليهم. ولكن هذه الثورات سرعان ما كانت تخمد ويسود ويســتتب الأمن حتى ولى العصر الأموى وتلاه العصر العباســى فدخلــت المدينة نهائياً فى عداد مدن الدولة الإسلامية فــى الطبقــة الثانيــة وحلت مدن سياسية جديدة حملت الدور السياسى كبغــداد وواســط وغيرهما.

* * *

الفصل الثانى

انتقال الحسن بن على بن أبى طالب
إلى المدينة من الكوفة



الفصل الثاني

انتقال الحسن بن على بن أبى طالب إلى المدينة من الكوفة بعد تنازله عن الخلافة لمعاوية حتى موته (وفاة الحسن والنزاع على دفنه) :-

تعتبر الفترة القصيرة التى قضاها الحسن بن على بن أبـــى طالب فى الخلافة بعد مقتل أبيه ، فترة انتقال فعلية مـــن عصـــر الخلفاء الراشدين وعصر الدولة الأموية ، بـــل أن فـــترة عصـــر الخلفاء الراشدين كان يحتضر إبان حكم على بن أبى طالب نفســـه رابع الخلفاء الراشدين وذلك خلال الحرب الأهلية التى نشبت بينـــه وبين معاوية بن أبى سفيان ، ولكى نتمكـــن مـــن دراســـة الحالـــة السياسية فى المدينة المنورة فى العصر الأموى يجـــب ان نلقـــى الضوء على فترة الانتقال هذه لتكون همزة وصل بين النظام القديـــم وما نحن بصدده. صحيح أن المدينة المنـــورة كـــانت قـــد فقـــدت مركزها كعاصمة للدولة الإسلامية ومركزاً للحكومة وقصبة للبلاد، ولكنها لم تكن قد فقدت الأمل بعد فى رجوع هـــذا المركـــز إليـــها والذى كان قد انتقل إلى الكوفة فى بداية حكم على ، وأيضـــاً بعـــد وفاته متأثراً بجراحه لم يفكر ابنه الحسن فى ترك الكوفة والعـــودة إلى المدينة إلا بعد تنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبـــى ســـفيان ،

وعقده الصلح معه واستتباب الأمن والسلام[1] ، ولكن هل كان الحسن فى نيته المضى فى هذا الصلح ؟ نقول أنه من غير المسلم به بالطبع أن يكون الحسن قد رضى عن هذا الوضع الذى آل إليه حاله من فقدانه للخلافة على هذا النحو ولكنه لم يكن يملك القوة ولا الوسيلة ولا حتى الأنصار الثقاة الذين يستطيع أن يركن إليهم ويعتمد عليهم ، فنحن هنا لا نوافق على رأى بعض المؤرخين (فلهوزن) من أن الحسن كان لا يرى القتال وكان زاهداً فى الحرب، فقد مضى الحسن ينفذ خطة والده فى محاولة القضاء على حركة التمرد التى تزعمها معاوية بالشام وخف بالجيش الذى كان قد أعده والده لمحاربة معاوية بعد فشل مسألة التحكيم والمهزلة

---

(١) الأصفهانى مقاتل الطالبين ص ٣٤ . خطب الحسن بن على بعد وفاة أمير المؤمنين على بن أبى طالب فقال :

" لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون ولا يدركه الآخرون بعمل ، ولقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ فيقيه بنفسه ، ولقد كان يوجهه برايته فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ، ولقد توفى فى هذه الليلة التى عرج فيها بعيسى بن مريم ولقد توفى فيها يوشع بن تومه وصى موسى ، وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ، ثم خنقته العبرات فبكى وبكى الناس معه ، ثم قال أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن محمد أنا ابن البشير أنا بن النذير أنا ابن الداعى إلى الله عز وجل بإذنه وأنا ابن السراج المنير وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا والذين افترض الله مودتهم فى كتابه إذ يقول ، ومن يقترف حسنه نزد له فيها حسنا ، فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت " .

ثم قال عبد الله بن العباس بين يده ، فدعى الناس إلى بيعته فاستجابوا له .

التى نتجت عنها ، ومنعه من إتمامها اغتياله ، ويقول فلــهوزن أن الحسن كان يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية وأنـــه لمـا بايعه أهل العراق اشترط عليهم : " أنهم سامعون مطيعون يسالمون من يسالم ويحاربون من يحارب ، وبذلك يكون زاهداً فى الحـــرب رامياً إلى الفائدة المادية ولكن إذا كان الأمـــر كذلــك فعــلام إذن المبايعة ؟ إنها إذن صفقة تجارية لا يستفيد منها جمهور المبـــايعين شيئا وهم الخاسرون على أى حال وبذلك لا نذهب مذهب من قـــال هذا من المؤرخين ولا نرى أن الحسن أملى على أنصــــاره هــذه الشروط إلا لكونهم اختلفوا فى الـــرأى علـــى والـــده وعـــارضوه وضايقوه وشتتوا رأيه وقلبوا برامجه ولم ينقادوا إلى رأيه وطاعته، فأراد الحسن ضمان هذه الطاعة وعدم المعارضة فى المســـتقبل ، ولم يزهد الحسن فى الحرب برغم ضعف قوته عن قوة عدوه وقلة عدد جيشه بالنسبة لجيش الشام إلا لما لمسه فى تفـــرق أنصـــاره وتشعب آرائهم وقلة حيائهم فقد ذهب بعضهم إلى محاولة اغتيـــال الحسن نفسه والاعتداء عليه وطعنه وإهانته بدون ســـبب واضـــح يستحق عليه هذا الاعتداء فخليق بالحسن بعد ذلك أن يؤثر الســـلم مؤقتاً ويتجنب ويلات كارثة محققة لم يتمكن أخوه الحســـين مـــن تجنبها بعد ذلك بعشرين سنه فى واقعة كربلاء المشـــهورة والتـــى استشهد فيها الحسين والتى سنعرضها فى محلها ، وبرغم غمـــوض

هذه الفترة من التاريخ وتضارب الآراء والأقوال والتي سببتها المؤامرات السياسية والدبلوماسية التي حاكها دهاقنة السياسة في ذلك الحين من أمثال معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبه وغيرهم ، فنحن أيضاً نستبعد أن يكون طلب الحسن الصلح أو إرسال الرسل إلى معاوية قبل انتقاض جيشه عليه وطعنه ونهب أمواله لم تكن هذه المراسلات(إذا كانت قد حدثت) بقصد المساومة المادية وإنما محاولة لإرساء قواعد السلم في ربوع الدولة الإسلامية وإخماد نار الفتنة التي كادت تدمر الكيان العربي الإسلامي من أساسه ، فلا يعيبُ الحسن أنه راسل معاوية في أمر الصلح فقد فعل ذلك والده من قبل وطبيعي أن علي بن أبي طالب لم يكن يبغي من مراسلة معاوية أمر مساومة ، بل لإنهاء النزاع وإيجاد حل سلمي له والحيلولة دون اندلاع الحرب ، فكذلك سار الحسن على نهج والده علي ولم يكن علي بن أبي طالب لو طال به الأجل لم يكن ليتصرف بخير من هذا التصرف الذي أقدم عليه الحسن ، والذي دل على بعد نظر [1] وحسن دراية وتجنب للتردي في المزيد من الصراع الدموي فعل هذا بدون يأس أو قنوط بل

---

(١) قال الحسن لحجر بن عدي الكندي حين قدم عليه بالمدينة وأظهر استياءه من صلحه مع معاوية :"إني رأيت هوى معظم الناس في الصلح وكرهوا الحرب ، فلم أحب أن أجعلهم على ما يكرهون ، فصالحت بقيا على شيعتنا خاصة من القتل ، ورأيت دفع هذه الحروب إلى يوم ما ، فإن الله كل يوم هو في شأن ".

على تربص وتنمر ، فقد قال مخاطباً بعض أنصاره الذين لاموه على تنازله لمعاوية قائلاً: " من يدرى لعلها فتنة ومتاع إلى حين ، كذلك استهل خطبته التى أعلن فيها تنازله عن الخلافة لمعاوية بقوله الحمد لله الذى هداكم بأولنا (يقصد جده النبى عليه الصلاة والسلام) وحقن دماءكم بآخرنا (يقصد نفسه هو)[1] ، أيضاً كان الحسن يأمل بعد فراغ أجل معاوية أن تنتهى فترة اغتصاب الخلافة التى قام بها الأمويون من الهاشميين وترجع الخلافة له ، فهو أحق بها من غيره ولم يكن يدرك أن ما قام به معاوية من مجهود فى الوصول فى الخلافة لم يكن لخير يبتغيه لنفسه دون ذريته وأن الأمر أصبح يختلف عما كان عليه زمن الخلفاء الراشدين وعذر الحسن واضح فى هذا ، فهذه الحالة جديدة عليه لم تتكرر منذ قيام الدولة الإسلامية ، ولكن يشاء الله أن تنتهى حياة الحسن قبل حياة معاوية بنيف وعشر سنوات تقريباً وفى هذه الوفاة تثار قضية أخرى وهى كيف انتهت حياة الحسن ؟ وهل كانت الوفاة طبيعية أم شابها شائب ؟

---

(١) كان من رأى الحسن بعد مقتل عثمان إلا يتعجل والده الإمام على بن أبى طالب فى تقبل البيعة بل عليه أن يلزم داره حتى تهدأ الفتنة ويجول العرب جولة فلا يجدون إلا هو - وذلك كان نعم الرأى لو عمل به.
- واقعة صفين - نصر بن مزاحم المنقرى ص ٢٥٠ .

• • • •

نحن نميل إلى أن وفاة الحسن لم تكن طبيعية وإن كان قد فـــرغ أجله من الدنيا وذلك لعدة أسباب لا نسوقها على سبيل التحيز ضــد الأمويين أو التعصب للهاشميين ، وإنما هى الأمانة التاريخية تملـى علينا التمعن فى دقائق هذه الوقائع فأول هــذه الأسـباب يوردهــا المؤرخ أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه مقاتل الطـــالبيين وجديــر بالذكر أن أبا الفرج الأصفهانى كما نلاحظ من اسمه أن نسبه يمتـد للأمويين ، أول هذه الأسباب التى أوردها أبو الفـــرج أن معاويـــة عندما أراد أن يعهد لولده يزيد من بعده بالخلافة ، لم يكن ليجـــرؤ على ذلك والحسن حياً وقد وضعت الحرب أوزارها على أساس أن الخلافة شورى بين المسلمين يولون من أحبوا بعد وفاة معاويـــة ، فبديهى أن يحاول معاوية التخلص من الحسن ومـــن أحــد كبــار الصحابة المسنين والذى كان أحد الستة الذين رشحهم عمـــر بــن الخطاب للخلافة ذلك هو سعد بن أبى وقاص ، والذى قـــام بـدس السم للحسن زوجته جعده بنت الأشعث بن قيس الكندى، ولا نستبعد هذه الرواية لعدة أسباب فمعاوية أحد أفراد أسرة لم تعتنق الإســلام إلا مكرهة بعد فتح مكة وكان والده أبو سفيان بـــن حــرب رأس الشرك وقائد قريش فى حربها ونضالها ومعارضتها للإسلام وقـــد بذل جهداً كبيراً فى القضاء على الدعوة الإسلامية ومقاومتها ولكـن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وقد تجلى نفـــاق هــذا

الرجل أيضاً عندما انهزم المسلمون أول الأمر فى معركة حنين ضد قبيلة هوازن حين : قال : " لا تنتهى هزيمتهم دون البحر " يعلن بذلك شماتته بالمسلمين ، كذلك فوالدة معاوية هى هند بنت عتبة التى لاكت كبد الحمزة عم النبى بعد مقتله فى موقعة أحد كذلك لا يستبعد هذا الأمر من معاوية الداهية المشهور صاحب المؤامرات والحيل ولقد تكرر أسلوبه هذا فى الاغتيال فى تخلصه من الأشتر النخعى حين أرسله على بن أبى طالب والياً على مصر، ورب قائل أن هذه دعاية روجها مؤرخو الشيعة أومن يناصبون الأمويين العداء ، ولكن ما الفرق بين الاغتيال بالسم والقتل بالحروب والفتن بين المسلمين بعضهم مع بعض من أجل غرض دنيوى بحت سعى إليه معاوية ألا وهو تقلده الخلافة فالفارق هنا هو فارق فى أسلوب القتل نفسه وإن كان الاغتيال على نحو القتل بالسم هو وسيلة دنيئة ورخيصة ، كذلك لا يستبعد أن تقوم بدس السم لزوجها الحسن جعده بن الأشعث فوالدها له تاريخ معروف لا يختلف كثيراً عن تاريخ الأمويين فى معارضته للإسلام ومكره بالمسلمين والنبى ، ثم ارتداده عن الإسلام ثم انضمامه بعد ذلك إلى جانب على انضماما جلب للأخير الإخفاق، وقد كان يفسد عليه رأيه ويعارضه فى كل صغيرة وكبيرة حتى أنه هو الذى أشار بالرجوع عن الحرب حين أراد على أن يستأنفها فى صفين

بعد فشل التحكيم ، ثم تردد أن الأشعث هذا كان على علم بما دبـوه الخوارج من مقتل على بن أبى طالب وأنه شجعهم على ذلك بعـد خلاف بسيط مع أمير المؤمنين على ، هدده فيه الأشعث بالقتل وكان رد على عليه رداً جميلاً كظم فيه غيظه حين قال : " يا أشعث أتهددنى بالقتل ؟ " فو الله ما أبالى وقعت على الموت أو وقع الموت علىّ ، لا يستبعد من ابنة مثل هذا الرجل أن تأتى هذه الفعلة النكراء والتى يأيدها أنها تزوجت من يزيد بن معاوية بعد تخلصهم جميعاً من الحسن وذلك ثمناً لجريمتها ، هذا وقد مرض الحسن من أثر السم، وخاطب أخاه أنه قد دس له السم ثلاثة مرات وأن هذه المرة قد أثر السم فى جوفه وأوصاه بان يدفنه بجوار رسول الله وكان فى حوالى الثامنة أو السابعة والأربعون دليل آخر على أن ميتته كانت غير طبيعية وليس كما ادعى معاوية بأن الذى أضعفه كثرة زواجه وطلاقه من النساء وشغفه بهن فهذا الإدعاء يدحضه كثرة الجوارى والإماء والزوجات عند الخلفاء سواء أمويين كانوا أو عباسيين ، ولم تسلم نهاية الحسن بن على بن أبى طالب من النزاع أيضاً فقد تدخل الأمويون فى مسألة دفنه بجوار الرسول ورفضوا ذلك [١] . يقول بن عبد البر فى كتابه الاستيعاب فى

---

(١) بن عبد البر - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ص ٣٨٩ .

معرفة الأصحاب... ومات الحسن بن على رضـــــى الله عنـــهما بالمدينة ، واختلف فى وقت وفاته — فقيل مات سنه تسع وأربعون، وقيل بل مات فى ربيع الأول من سنة خمسين بعد ما مضى مــــن إمارة معاوية عشرة سنين ، وقيل بل مات سنه إحـــدى وخمســين ودفن ببقيع الغرقد ، وصلى عليه سعيد بن العاص وكـــان أمـــيراً بالمدينة قدمه الحسين للصلاة على أخيه ، وقال : " لولا أنها سنه ما قدمتك " ، وقد كانت أباحت له عائشة أن يدفن مع رســـول الله ﷺ (لكون الرسول دفن فى منزلها هى) فى بيتها وكان سألها ذلك فى مرضه فلما مات منع من ذلك مروان وبنو أميه فى خـــبر يطـــول ذكره . وقال قتادة وأبو بكر بن حفص : " سم الحسن بـــن علـــى رضى الله عنه ، سمته امرأته جعده بنت الأشعث بن قيس الكندى " وقالت طائفة :" كان ذلك بتدسيس معاوية إليها وما بذل لها فى ذلك وكان لها ضرائر والله أعلم (ينكر بـــن عبـــد الـــبر فـــى كتابـــه الاستيعاب نسبه السم إلى معاوية) وكانت سنه يـــوم مـــات ســـتاً وأربعون أو سبعاً وأربعون سنه ، فلما مات الحسن ، أتى الحســين عائشة ، فطلب أن يدفن الحسن فى بيتها بجـــوار الرســـول ﷺ ، فقالت نعم وكرامة ، فبلغ ذلك مروان ، فقـــال : " مـــروان كـــذب وكذبت ، والله لا يدفن هناك أبداً ، منعوا عثمان مـــن دفنـــه فـــى المقبرة ، ويريدون دفن الحسن فى بيت عائشة فبلغ ذلك الحســـين

فدخل هو ومن معه فى السلاح ، فبلغ ذلك مروان فاستلأم [١] فـــى الحديد أيضاً ، فبلغ ذلك أبا هريرة فقال : " والله ما هو إلا ظلـــم ، يمنع الحسن أن يدفن مع أبيه والله أنـــه لابـــن رســـول الله ﷺ ثم انطلق إلى الحسين فكلمه وناشده الله وقال له :" أليس قال أخـــوك : إن خفت أن يكون قتال فردونى إلى مقبرة المسلمين ، فلم يزل بـــه حتى فعل وحمله إلى البقيع فلم يشهده يومئذ من بنى أميه إلا ســـعيد بن العاص وكان يومئذ أميراً على المدينة وقدمه الحسين للصــــلاة عليه وقال :" هى السنة ، وخالد بن الوليد بن عقبه ، ناشد بنى أمية أن يخنوه يشاهد الجنازة فتركوه فشهد دفنه فى المقبرة ، ودفن إلـــى جانب أمه السيدة فاطمة رضى الله عنها وعن بنيها أجمعين ".

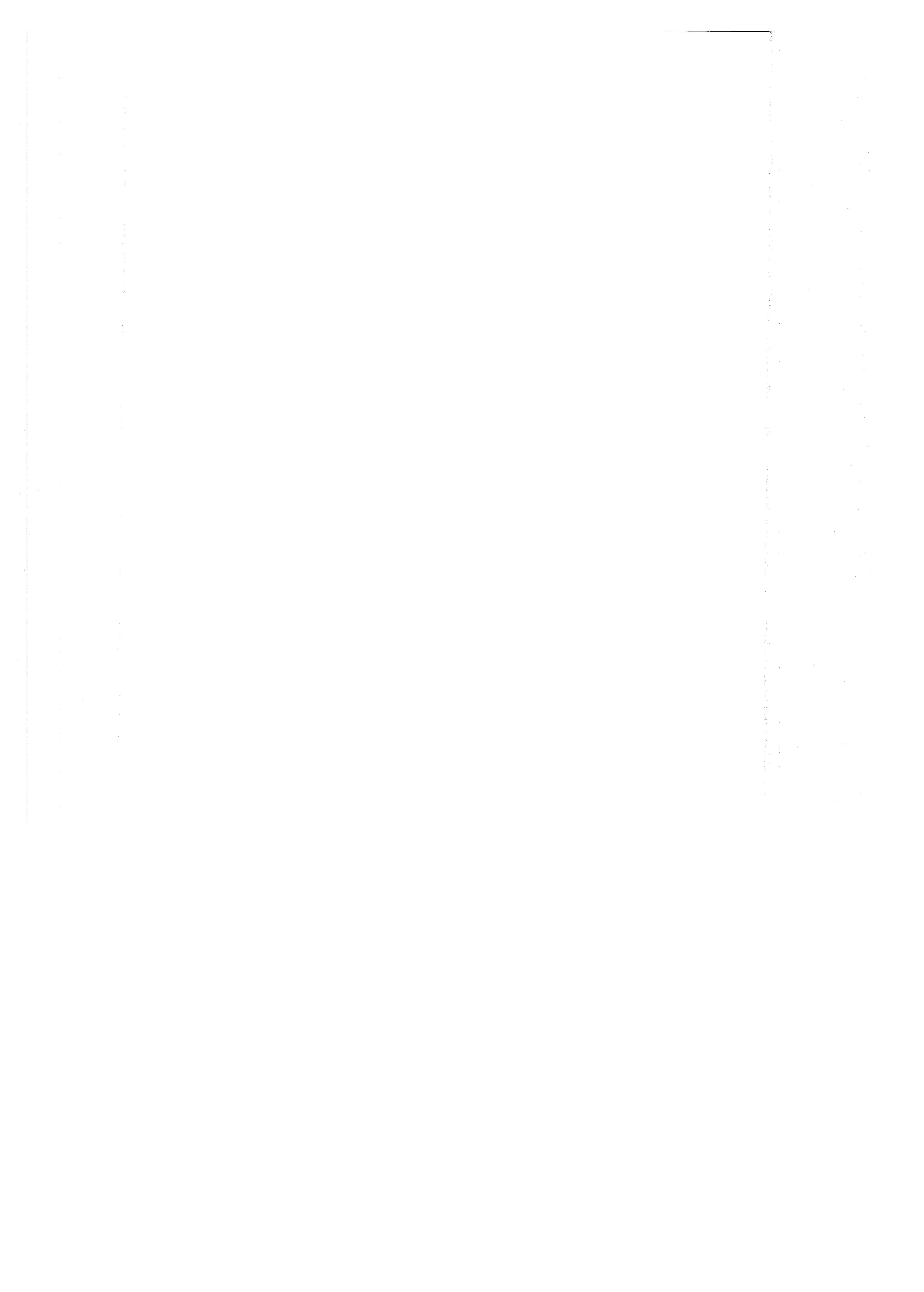
* * * *

---

(١) أى لبس لأمته وهى لباس الحرب من الدروع والخوذة والزرد والمغفر وغيره .

الفصل الثالث

موقف المدينة من محاولة البيعه ليزيد
ابن معاوية



الفصل الثالث

✤ موقف المدينة من محاولة البيعه ليزيد بن معاوية :-

لم يكن معاوية ليخوض صراعاً سياسياً ودموياً هائلاً في صفين وفي دومة الجندل وفي غيرها كاد يهد الصرح الإسلامي هداً ويفرق جماعة المسلمين أبدى سبا ، من أجل وصوله إلى أعلى منصب دنيوى ألا وهو الخلافة والتى حصل عليها سنة أربعين هجرية وكانت سنة قرابة خمسة وخمسين عاماً أو ما يزيد ، لم يكن ليفعل هذا كله من أجل مجد شخصى له، بل تمهيداً لعقبه من بعده وتمكيناً لأسرته فى رئاسة العالم الإسلامى وهذا طبيعى وأن كانت الروايات تحاول أن تجد قصة مسرحية وبداية مثيرة لأخذ البيعة لولده يزيد من بعده وذكرها قصة المغيرة بن شعبة ، ونحن هنا لا نحاول نفى قصة المغيرة فى أنها كانت سبباً مباشراً لعمل معاوية على أخذ البيعة ليزيد بل ننكر أنها كانت السبب الرئيسى والأساسى لذلك فنية معاوية على هذا الأمر لابد أن تكون مبيتة فى صدره وأن كان قد تركها للظروف وحتى يمهد لها ما قام بها من الدسائس والمؤامرات والاغتيالات يقول ابن قتيبه فى كتاب الإمامة والسياسة[1] " لما استقامت الأمور لمعاوية استعمل على الكوفة

---

(١) بن قتيبة الإمامة والسياسة ص ٢٦٢ .

المغيرة بن شعبه ، ثم أراد أن يعزله ويولى سعيد بن العاص ، فلما بلغ ذلك المغيرة قدم الشام على معاوية [1] ومضى حتى دخل على يزيد فقال له : " أنه قد ذهب أعيان أصحاب النبى ﷺ ، وآله كبراء قريش وذوو أسنانهم وإنما بقى أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً ، وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . فقال يزيد للمغيرة : " أو ترى ذلك يتم ؟ قال المغيرة :" نعم " فدخل يزيد على أبيه معاوية ، وأخبره بما قال المغيرة . فما كان من معاوية إلا ان دعى المغيرة وقال له ما يقول يزيد فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين :" قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف بعد عثمان ، وفى عنقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه بعد مقتل عثمان، فأجعل للناس بعدك علماً يفزعون إليه واجعل ذلك يزيد ابنك — وفيه خلف منك فأعقد له ، فإن حدث بك حدث كان كهفاً للناس ، وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنه ، وقال معاوية : " ومن لى بهذا ؟ فقال المغيرة :" أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة . وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفه ، فقال له معاوية " فارجع إلى عملك ، وتحدث مع من تثق إليه فى

---

(١) إبراهيم الإبيارى معاوية ص ٢٤٧

ذلك ، وترى ونرى " ، فودعه المغيرة وحرج عنه إلى الكوفة وقد ثبت فى ولايته عليها ولم يخلع منها ، ولما سئل عن نتيجة رحلته قال :" لقد وضعت رجل معاوية فى غرس بعيد الغاية على أمة محمد ، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً . ولا ندرى كيف سمحت نفس المغيرة له أن يفعل ذلك مع ثقته أنه قد فتق على أمة محمد فتقاً لا يرتق ، وكيف أنه ذهب إلى دمشق ناصحاً لمعاوية لأخذه البيعة ليزيد حتى يجنب المسلمون فتنه هوجاء كالتى حدثت أبان وعقب مقتل عثمان ، ولكن لا عجب فقد انتهى عصر الدولة الديمقراطية وأصبحنا فى زمن الدولة العلمانية الدنيوية السياسية التى يرمى الناس إلى أن ينالوا لأنفسهم من ورائها غنما أو كسباً ولا يعنيهم مغبتها على الناس.

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة ، وحدث الناس الذين يثق بهم ويعلم أنهم شيعة بنى أمية ، فأجابوه فأوفد منهم المغيرة عشرين على معاوية وقدم هؤلاء العشرون على معاوية ، فزينوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها. فقال لهم معاوية : لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم ، وإنما فعل ذلك معاوية ليحتاط لنفسه وليحتاط لأمره ، فهو لا يريد أن يثير الناس عليه ، وهو يعلم أن ليست قلوب الناس معه كلها ، وهو لا يحب أن يخرج على الناس بأمر فيرده الناس عليه ، كما أن هناك نفراً محايدين يرون الحق

ويخافون أن يجهروا به [١] ويروى أن معاوية قال للأحنف بن قيس وكان ضمن وفد البصرة والكوفة الذين وفدوا إلى دمشق من أجل أمر عقد البيعة هذا ،

قال له معاوية : " ما تقول يا أبا بحر ؟ فقال الأحنف " نخافكم إن صدقنا ، ونخاف الله إن كذبنا ، وأنت يا أمير المؤمنين أعلمنا بليل " يزيد " ونهاره وبسره وعلانيته ، فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه وإن كنت تعلم أنه شر لك فلا تزوده للدنيا وأنت صائر إلى الآخرة فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب، واعلم أنه لا حجة لك عند الله أن قدمت يزيد على الحسن والحسين وأنت تعلم من هما وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" . ولكن معاوية عالج موقف الأحنف هذا وغيره بالمال وهو المنطق الذى يعرفه والسلاح الذى يمتلكه والأسلوب الذى يسلكه فى إنجاز أموره والوصول إلى مآربه وأهدافه، وقد عرف أن الذمم تباع وأن العهود تشترى ومعاوية يملك من المال الكثير مما يقوى به على شراء الذمم والعهود ، فصح عزم معاوية على البيعه ليزيد ، ودعا الضحاك بن قيس الفهرى فقال له : " إذا جلست على المنبر وفرغت من بعض موعظتى وكلامى فاستأذنى للقيام فإذا أذنت لك فأحمد الله تعالى واذكر يزيداً وقل فيه الذى يحق له عليك من حسن الثناء عليه ثم ادعنى إلى توليته من بعدى ،

فإنى قد رأيت وأجمعت على توليته فاسأل الله فى ذلك وفى غـــيره الخير وحسن القضاء " ، ثم أشار إلـــى غـــيره إلـــى أن يقومـــوا ويصدقوا على قوله . ثم أرسل إلى زياد (ابن أبيه الذى اســـتلحقه معاوية بنسبه وجعله زياد بن أبى سفيان) أرسل إليه يستشيره فـــى أمر البيعة ، وكان زياد فى نفسه شئ عن يزيد لا ندرى أكان هـــذا الشىء هو الذى يحول بينه وبين أن يناصر معاوية كمـــا نـــاصره المغيرة ، أو لأنه كان يطمع فى ذلك لنفسه ، فهو بعد الإستلحاق أخ للخليفة ، ثم يكبر يزيد سناً وهو على ذلك قائد شجاع ووالٍ ضـــابط لما تحت يديه من أمصار، ولا نستبعد الأمر الأخير وهـــو طمـــع زياد فى الخلافة فلم يكن هو وحده الذى طمع فيها ، فقد طمع كذلك مروان بن الحكم واحتج على معاوية لتقديمه الصبيـــان وتـــأخيره الشيوخ من بنى أمية ، بقصد توليته ليزيد وتأخيره له – ومع ذلـــك فقد نصح زياد معاويه نصيحة خالصة وإن كانت غير مباشرة فـــى أمر ولده يزيد كان لها أثرها ، فقد أرسل زياد إلى عبيد بن كعـــب النميرى وقال له : " بعد أن أظهر له ثقته به : " أن أمير المؤمنيـــن كتب يستشيرنى فى كذا وكذا ، وأنه يتخوف نفرة النـــاس ويرجـــو طاعتهم[١] وأنك لتعلم أن يزيد صاحب رسله وتهاون مع مـــا قـــد أولع به من الصيد " ، ثم طلب زياد من عبيـــد بن كعـــب أن يلقى

---

(١٢)الطبرى – تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٧٣ .

معاوية ويخبره بأحوال يزيد ويوصيه بالأناة فى الأمر ، فإن ذلك أجدر أن يحقق لمعاوية ما يريد ، فقال له عبيد : " لا تفسد على معاوية رأيه ولا تمقت إليه ابنه واقترح عبيد أن يلقى يزيداً سراً وينصح له بترك ما ينقم عليه الناس من أجله ، حتى تستحكم الحجة لمعاوية عليهم ، وأراد عبيد بذلك أن يرضى معاوية وأن ينصح ليزيد . وقد قبل زياد هذه المشورة وعمل بها ، فبعث عبيد بن كعب إلى دمشق ، وكتب هو إلى معاوية يقترح عليه التؤدة وإلا يتعجل الأمر ، فقبل معاوية منه ذلك – وبموت زياد يشتد عزم معاوية على البيعه ليزيد وبدأ يكشف عن نيته ، فبدأ باستطلاع الجو فى المدينة ، وهى عاصمة الإسلام الأولى التى كانت لا تزال تعتبر المكان الحقيقى للبيعة ، وخصوصاً أن كبار المسلمين الذين كان لابد أن تؤخذ منهم البيعه قبل غيرهم كانوا يسكنون فيها فجرب سلاح المال أولاً فى شراء الذمم ولكنه أخفق هذه المرة ، فقد أرسل إلى عبد الله ابن عمر بن الخطاب مائة ألف درهم ، فقبلها عبد الله لأنها لم تكن مشروطة بل أرسلها له دون قيد أو شرط كأنها معونة خالصة لوجه الله ، فلما ذكر معاوية لابن عمر أمر البيعه ليزيد ، قال ابن عمر: " لهذا أراد ، إن دينى إذاً لرخيص ، وامتنع ابن عمر عن البيعه ، وترك معاوية أمر ابن عمر وأخذ يكتب إلى مروان بن الحكم وكان والياً على المدينة فقال : " إنى قد كبرت

سنى ودق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة ، وقد رأيـــت أن أتخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك على الناس وأعلمنى بالذى يردونه عليـــك . وهكذا كان يدبر معاوية ، ببذل المال حين يرى أن المال ينفعه فـــى استجابة الناس له، ثم يدخل معه فى الرأى من يخافهم علـــى هـــذا الأمر حتى لا يطمعوا فيه ، ويخالفوه عليه ، وحتى يتعـــرف ميـــل الناس ، وتتكشف له سرائرهم فيعرف عدوه من صديقه ، ويحتـــاط لأمره ويحتاط لأمر ابنه من بعده ، فلما عرض مروان الأمر عليهم قالوا : أصاب ووفق ، وقد أحببنا أن يتخير لنا ، فلا يألو . وكتـــب مروان إلى معاوية بما قالوه فرد معاوية عليه ، وذكر عزمه علـــى اختيار يزيد خليفة بعده . فلما أبلغ مروان كبار أهل المدينة بـــدأت مظاهر الاعتراض والنقد من جانبهم ، وكان الاعتراض آتياً مـــن قبل أبناء كبار الصحابة خاصة ، كالحسين بن على وعبد الله بـــن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير فقد قام له عبـد الرحمن بن أبى بكر فقال : " كذبت والله يا مروان وكذب معاوية ، ما الخبر ما أردتما لأمه محمـــد ولكنكمـــا تريـــدان أن تجعلوهـــا هرقليه[1] كلما مات هرقل قام هرقل ، وقام الحسن بن على فـــأنكر

---

(١) يقصد أنكم تريدون تحويل نظام الحكم إلى ملكى وراثى كما هو فى الحال فى بلاد الروم وليس على أساس الشورى كما كان العهد بالخلفاء الراشدين.

ذلك وفعل مثله بن عمرو ابن الزبير فكتب مـــروان بذلــك إلـــى معاوية، وكان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريـــظ يزيـــد ومدحـــه ووصف محاسنه ، وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار إلى دمشق، وهى التى أشرنا إليها آنفاً ، فكان فيمن أتاه محمد بن عمـــرو بـــن حزم من المدينة ، والأحنف ابن قيس فى وفد أهل البصرة ، فقال : محمد بن عمرو لمعاوية: " إن كل راع مسئول عن رعيته ، فانظر من تولى أمر أمه محمد ، فأنبهر معاوية ولكنه أحب أن يختـــال ، وأحب أن يسكت محمد بن عمرو فوصله بالمال وطبق نفس الشيء على الأحنف بن قيس حين قال قولته المشهورة ، فقـــد أمـــره أن يدخل على يزيد فدخل عليه ، فلما خرج من عنده قال له لمعاويـــة ، كيف رأيت بن أخيك ؟ فقال الأحنف : رأيت شبابا ونشاطاً وجلـــداً ومزاحاً ، وهكذا بدأه مجلس البيعة الذى عقد فى دمشق ، لا خلاف فيه على معاوية هادئاً مستجيباً إلا ما من عضو وفد المدينة محمـــد بن عمرو بن حزم ، وهو أمر جدير بالملاحظة ، وكـــان معاويـــة يعطى المقارب ويجازى المباعد ويلطف بالمخالف ، حتى اجتمع له أكثر الناس وبايعوه ، وحين بايع معاوية ، أهل العراق وأهل الشـام ليزيد ، خرج بنفسه وركب إلى هناك فى ألف فارس وحين دنا مـــن المدينة لقيه الحسين بن على ، فاشتد عليه بالمقال فقـــال الحســـين مهلاً فأنى والله لست أهلاً لهذه المقال" ، فقال له معاوية :

" بل ولشرٍ منها " وكما فعل معاوية بالحسين ، فعل بكبـــار أبنـــاء الصحابة كابن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن عمر، واقبل هؤلاء مع معاوية ، ولكنه كان لا يلتفت إليهم حتـــى دخـل المدينة ، فحضروا بابه فلم يؤذن لهم على منازلهم ولم يروا منه ما يحبون ، فخرجوا إلى مكة فأقاموا بها ، ولم يثن ذلك معاوية عـــن رأيه ، فوقف يخطب فى الناس بالمدينة فذكـــر يزيـــداً ومدحـــه ، وقال:- " من أحق منه بالخلافة فى فضله وعقله وموضعـــه ومـــا أظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم (يقصد بـهذا التهديد أبناء الصحابة وخاصة الحسين بن على) وقد أنـــذرت إن أغنت النذر" ، ثم أنشد مشتملاً :-

قد حذرتك آل المصطلق

وقلت يا عمرو أطعنى وأنطلق

أنك إن كلفتنى ما لم أطق

ساءك ما سرك منى من خلق

دونك ما أستسقيته فالحس وذق

من هذا نرى أن معاوية قد ترك الملاينة التى كان يصطنعها أولاً إلى المخاشنة التى صرح بها ثانيا ، ولقد كان يحـــس الأمـــر صعباً حين بدأ به ،فلما بايعه كثرة الناس وأمن جانبهم لم يخشى من بقى منهم مهما كان لهؤلاء الباقين من الشرف والعـــزة ، فمـــا دام يضمن الكثرة المقاتلة والقادة المغامرين من أى الطبقات كـــانوا ،

فانه كان لا يأبه لأى شئ آخر من الشرف والعزة ، ولـــهذا أنـــذر معاوية هذا الإنذار المخيف والذى نفده خلفـــه بـــالفعل ، غـــير أن معاوية كان يشتد ليخيف ، ثم يحتال لتمضى شدته إلى غايتـــها دون أن تكلفه دما . من أجل ذلك قصد معاوية إلى عائشة وكانت عائشة قد بلغها انه ذكر الحسين وأصحابه وهدد بقتلـــهم أن لـــم يبـــايعوا فتحدث إلى عائشة وتحدثت إليه عائشة فقالت له : " فـــأرفق بـــهم فأنهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله ، وهذا نـــوع آخـــر مـــن أساليب معاوية فى السياسة ففى هذه الخطوة أراد أن يكتسب السيدة عائشة إلى جانبه فى موضعه هذا ليكتسب نصيراً قوياً آخر ، ثـــم خرج معاوية إلى مكة وفى نيته أن يرفق بهؤلاء النفـــر اســـتجابة لعائشة ، فكان أول من لقيه الحسين فأكرمه وبره ، وكذلـــك فعـــل بأصحابه ، لا يمضى يوم إلا ولهم صلة ومودة ، ولما آن لمعاويـــة أن يرحل جمعهم وهم مرتابون لرفق معاوية بهم لم ينخدعوا بذلـك، وقال بعضهم لبعض " لا تُخدعوا فما صنع بكم معاوية هذا لحبكم ، وما صنعه إلا ما يريد ، فأعدوا له جوابه ، فاتفقوا على أن يكـــون المخاطب له هو عبد الله بن الزبير ، فلما مثل القـــوم بيـــن يـــدى معاوية قال لهم : " لقد علمتم سيرتى فيكـــم وصلتـــى لأرحـــامكم وحملى ما كان منكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وأراد أن تقدمـــوه باسم الخلافة وتكونوا أنتم الذين تعزلون وتأمرون ، وتجبون المـــال وتقسمونه لا يعارضكم فى شئ من ذلك – وبالطبع كان ذلك ضرباً من ضروب الدهاء والخداع فهو يمنى المعارضين بأنـــهم ســـوف يكونون سند الخليفة ومستشاروه والحاكمين بأمرهم ومشاركوه فـــى

الحكم ،وليس له من الخلافة إلا اسمها ، وغير طبيعى أن يسعى معاويه سعيه هذا كله ليصل إلى هذه النتيجة لا — بل كان يسعى إلى أن يحصل أولاً وبأى ثمن على بيعة هؤلاء النفر ، ثم لا يضيره بعد ذلك أن يمكر بهم ولا ينفذ ما مناهم به وما اتفق معهم عليه ، ولا غرو فله من السوابق الكثير ، فلو كان معاوية جاداً فى تنفيذ كلامه هذا لكان أحرى به أن ينفذ ما اتفق عليه مع الحسن بن على بن أبى طالب ساعة تنازل الأخير له عن الخلافة من أن الخلافة سوف تكون شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا بعد وفاة معاوية ، فبديهى أن القوم لم يصدقوا هذه الوعود ، ورفض عبد الله بن الزبير باسمهم جميعاً ما يريده معاوية منهم وعرض عليه ثلاثة نقاط يوافقون هم عليها ، وكان عبد الله بن الزبير أخطب الموجودين وأقدرهم على رد الخطاب فقال معاوية أعرضهن فقال ابن الزبير:" تصنع كما صنع رسول الله ﷺ ، أو ما كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر . فتجاهل معاويه ما صنعوا فقال ابن الزبير : " قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحداً فأرتضى الناس أبا بكر ". فرد معاوية رداً يدل على الدهاء والمكر: " ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف " فقالوا له :" صدقت ، فأصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قريش ليس من بنى أبيه " فأستخلفه — وأن شئت فاصنع كما صنع عمر ، لقد جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه"، وهنا يئس معاويه من رضوخ هؤلاء المعارضين باللين فلم يجد عندهم غير هذه الأمور ، فصمم أن ينهى الأمر كما يحب

ويختار على أى وجه من الوجوه فقد قلب الأمور كلها واستعمل الدهاء والمال والخداع واللين والتهديد ، فلم يفلح هذا كله فى حملهم على قبول ما اعتزم إجراءه ، فصمم أن يتخذ خطوه عمليه تضعهم أمام الأمر الواقع الذى ليس لهم منه مناص ، فقال لهم معاوية :-

" إنى قد أحببت أن أتقدم إليكم ، أنه قد أعذر من أنذر ، إنى كنت أخطب فيكم ، فيقول إلى القائم منكم ، فيكذبنى على رؤوس الناس ، فأحمل ذلك ، واصفح ، وإنى قائم بمقاله ، فأقسم بالله لئن رد على أحد كلمة فى مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه " ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال " أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما !! " ثم خرج ، وخرجوا معه حتى رقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال " أن هؤلاء الرهط ، سادة المسلمين وخيارهم ولا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن شورتهم ، وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله ، فبايع الناس عند ذلك ، وكانوا يتربصون بيعة أولئك النفر " وسكت الأربعة الكبار خوفاً على أنفسهم من القتل وخرج معاويه بعد ذلك إلى المدينة وأخذ فيها أيضاً البيعة ليزيد ويختلف جمهرة المؤرخين فى صحة هذه الرواية ، فلا يذكرها الطبرى ويذكرها ابن الأثير، وبينهما روايات أخرى لا يهمنا الطريقة التى أخذت بها البيعة ، فالمهم أن البيعة تمت بأى وجه من الوجوه وأن كان لا يعقل أن تتم هذه البيعة بدون معارضة أبناء كبار الصحابة

والذين يرون أنهم أحق بالخلافة من ابن معاوية فلابد أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث تعبيراً عن رأيهم فى أخذ البيعة ليزيد دونهم ، وهكذا نجح معاوية فيما لم ينجح فيه مروان بن الحكم والى معاوية على المدينة ، فقد حمل كبار المعارضين على البيعة بالقوة وأن لم يعترفوا بذلك بدعوى أنهم أجبروا عليها قسراً وتحت التهديد ، غير أننا نميل إلى القول بأن مروان بن الحكم كان باستطاعته أن يقوم بما قام به معاويه لو أنه لم يكن يحمل فى نفسه ضغناً بسبب تقديم معاوية لولده يزيد وتأخيره له(أى مروان) [1] فقد أبى مروان بيعة يزيد أولاً وكذلك أبته قريش فأرسل مروان إلى معاويه " أن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعة ابنك فأرنى رأيك فلما بلغ معاويه كتاب مروان عرف ذلك من قبله فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ويخبره أن قد ولى المدينة سعيد بن العاص ، فلما بلغ مروان كتاب معاوية أقبل مغاضباً فى أهل بيته وناس كثير من قومه حتى نزل بأخواله بنى كنانه، فشكا إليهم واخبرهم بالذى كان من رأيه فى أمر معاوية وفى عزله واستخلافه يزيد ابنه من غير شورى فبادروه فقالوا :" نحن نبلك فى يدك وسيفك فى قرابك فمن رميته بنا أصبناه، ومن ضربته بنا قطعناه [2] هذا وقد عارض مروان بن الحكم مبايعة يزيد ، غير أن سلاح المال أفلح فى إخماد اعتراضه .

---

(١) ابن قتيبه – الإمامة والسياسة ص ٢٧٧

(٢) ابن قتيبه – الإمامة والسياسة ص ٢٧٩

• **كراهية أهل المدينة البيعة وردهم عليها :-**

كتب معاوية إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة يـــأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ، ويكتب إليه بمن سارع ممن لـــم يسارع ، فلما أتى سعيد بن العاص الكتاب دعا الناس إلـــى البيعـــة ليزيد واظهر الغلظة وأخذهم بالعزم والشدة وبطش بكل من أبطـــأ عن ذلك ، فأبطأ الناس عنها إلا اليســـير لا سيما بنى هاشم ، فإنـــه لم يجبه منهم أحد ، وكان بن الزبير من أشد الناس إنكـــاراً لذلـــك ورداً له ، فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية :" أمـــا بعـــد فـــأنت أمرتنى أن أدعو الناس لبيعة يزيد بن أمير المؤمنين ، وأن أكتـــب إليك بمن سارع ممن أبطأ وأنى أخبرك أن الناس عن ذلك بطـــأ لا سيما أهل البيت من بنى هاشم فإنه لم يجبنى منهم أحد وبلغنى منهم ما أكره ، وأما الذى جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بـــن الزبير ولست أقوى عليهم إلا بالخيل والرجال أو تقدم بنفسك فترى رأيك فى ذلك والسلام ، فأرسل معاوية له خطاباً ينصحه بـــالترفق وعدم الاختراق ، وأوصاه بالحسين خيراً وحذره من عبد الله بـــن الزبير ، وأرسل الرسائل التهديدية والتى تأمر بالبيعة لكل من عبـــد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين ، وعبـــد الله بـــن الزبير ، ورد هؤلاء عليه وخاصة الحسين ردوداً جافية معرضيـــن بأخلاق يزيد ونزعته للصيد والشراب ، فأرسل معاويه إلى ســـعيد بن العاص بالمدينة أن يأخذ المهاجرين والأنصار من أهل المدينـــة بالشدة فى البيعة ففعل ولكنه لم يبايعه أحد ، فأخبره أن الناس تبعوا

هؤلاء — فأمره معاوية بألا يحركهم حتـى يقـدم (أى لا يتركـهم يغادرون المدينة) وهذا هو السبب فى قدوم معاويه إلـى المدينـة والرواية السالفة الذكر من مقابلته للحسـين وصحبـه ومعاملتـهم معامله جافه ، ثم شكايته لأم المؤمنين عائشة منهم ، ثـم محاولتـه أخذ البيعة من النفر الخمسة الكبار كلٍ على حده ، وفشله فى ذلـك وتكرار المحاولة ، وفشله مرة ثانية – تلك الرواية التـى ينكرهـا المؤرخ المستشرق الغربى فلهوزن ونكرانه أن البيعة أخذت علـى هذه الصورة [١] وفى مكة وليست فى المدينة والتى يجب أن تتـم فيها البيعة ، ولكن فات هذا المستشرق أن المقصود مـن المدينـة سكانها وليس مكانها فالرواية تذكر أن الحسين والآخرين غـادروا المدينة إلى مكة حيث أساء معاوية استقبالهم إياه فكيف تتم البيعة إذا فى المدينة والمطلوب منهم المبايعة قد غادروا إلـى مكـة ، هـذا ويظل الحال هادئاً هدوءاً ظاهرياً طيلة عهد معاوية وأن كان يغلـى كالمرجل ينتظر اللحظة المناسبة للانفجار المروع حتـى يمـوت معاوية سنه ٦٠ هجرية وتبدأ لحظة الاحتكـاك القاسـى ، لحظـة اختبار البيعة التى تمت فى مكة بالقوة وبالصورة التـى أوردناهـا على زعم بعض المؤرخين حتى جاءت لحظة اختبار هذه البيعـة عملياً ساعة أن مات معاوية وتولى يزيد الخلافة من بعده .

---

(١) فلهوزن تاريخ الدولة العربية ص١٤٠

يزيد بن معاوية ومحاولة وتأكيد سلطان الامويون على المدينة :ـ

عندما حضرت معاوية الوفاة استخلف الضحاك بن قيس بعده حتى يأتى يزيد – وكان غائباً عن دمشق ، وعاد إليها بعد عشرة أيام من وفاة والده ، وتولى الخلافة أول رجب سنه ٦٠ هجرية ، ثم كتب إلى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان أمير المدينة ما أخبره بموت أبيه ، وأمره فى هذا الكتاب أن يأخذ الحسين بن على، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ولا يذكر غيرهم ، بالبيعة أخذا شديداً ليست فيه رخصة ، حتى يبايعوا فأستشار الوليد بن عتبة – مروان بن الحكم برغم ما كان بينهما من تباعد إذ أن معاوية كان يحرص على أن يفرق بين كبار البيت الأموى مخافة أن يتحزبوا عليه، حاول الإيقاع بينهما فى المدينة وأن لم يحقق نجاحاً كبيرا فى ذلك ، استشار الوليد ، مروان فأشار مروان بالمبادرة إلى دعوة النفر الممتنعين ، خصوصا الحسين وابن الزبير، إلى البيعة والدخول إلى الطاعة ، فأن فعلوا قبل ذلك منهم ، وأن أبوا قدموا فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فأنهم أن علموا به من غير مبايعة وثب كل امرئ منهم فى جانب واظهر الخلاف والمنابذة ودعا إلى نفسه. أما عبد الله بن عمر فلم يعتبره مروان مصدر خطر ، ورأى أنه يظن أنه لا يميل إلى

القتال، وهو لا يحب أن يولى على الناس إلا أن يدفع إليه هذا الأمر عفواً ، وقد كان معاوية صادق النظر فى ابن عمر عندما قال :-

" أنه رجل قد وقذته العبادة فليس ملتمساً شيئاً ".[1] فقد قابل ابن عمر الحسين وابن الزبير ، وهما فى طريقهما إلى مكة فسألهما:- "ما وراءكما ؟ فقالا : موت معاوية والبيعة لزيد ، فقال لهما : " اتقيا الله ولا تفرقا كلمة المسلمين ". هذا [2] وقد حاول ابن الزبيران يوسط صفيه زوجه ابن عمر لدى زوجها لكى يبايع ابن الزبير فقال بن عمر لزوجته لما أكثرت الكلام فى بن الزبير وأنه إنما انشق على بنى أميه غضباً لله ورسوله والمهاجرين : " أما رأيت بغلات معاوية الشهباء التى كان يحج عليهن ، فابن ابن الزبير ما يريد غيرهن " ، ويقول الطبرى أن ابن عمر كان حريصا على جمع كلمة الأمة ومستعداً لمبايعة يزيد إذا بايعه الناس وإن كان استعداده هذا يرجع إلى رسوخ قدم الأمويين فى الحكم واحكام سيطرتهم عليه — هذا وقد كان الوليد بن عتبة لا يميل إلى القسوة والعنف ، فأرسل يدعو الحسين وابن الزبير فى ساعة لم يكن يجلس فيها للناس ، فصرفا رسوله ، واستنتجا أن معاوية قد مات أو أن هذا الخبر قد بدأ يتفشى وتتضح صحته ، وأن الوليد يدعوهما

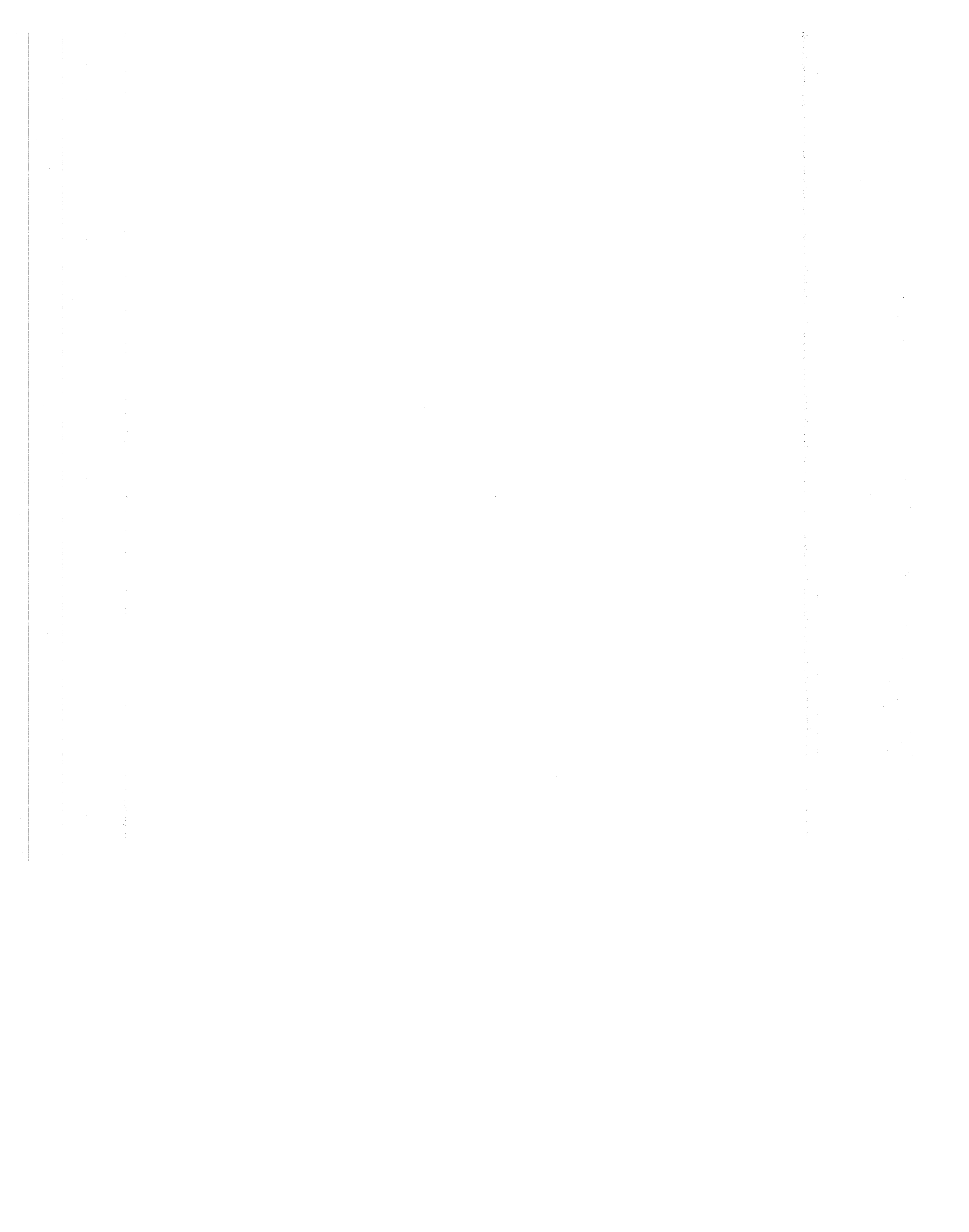
(١) الطبرى – تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص٢٢٢
(٢) الأصفهانى – الأغانى جـ١ ص١٢

إلى البيعة قبل أن يفشى فى الناس خبر موت الطاغية ، ثم ذهب الحسين إلى الوليد فأقراه الوليد كتاب يزيد ودعاه إلى البيعة ، فقال الحسين : " أن مثله لا يعطى البيعة سراً ، بل على رؤوس الأشهاد علانية " ، واقترح على الوليد أن يخرج ويدعو الناس إلى البيعة ويدعوه إليها معهم ، فرضى الوليد بذلك . وأراد مروان أن يقنع الوليد بحبس الحسين حتى يبايع أو يضرب عنقه ولم يكفه أنه كان ولم يزل رسول الشر ومستشار الدمار ومسبب الفتنه فما سعى إلى الخير مطلقاً وإنما كان يسعى إلى سفك الدماء والمزيد من القتل والتعذيب والتنكيل حتى يصل إلى أهدافه خاصة وأهداف البيت الأموى عامة الذى لن يلبث بعد قليل أن يحصر الحكم فى بيته هو من دون البيت الأموى والسفيانى خاصة - ولكن الوليد لم يستمع إلى نصيحته الدموية هذه وأبى ذلك واستقبحه ، أما ابن الزبير فإنه لما بعث إليه الوليد جعل يتلكأ ، حتى خرج من المدينة ليلاً . فبعث الوليد إلى الحسين فاستمهل الرسل حتى الصباح ثم خرج من المدينة فى الليل ، بعد ابن الزبير بليلة ، وذهب إلى مكة فى آخر رجب سنه ٦٠ هجرية وأعلنا تملصهما من آلاء البيعة ليزيد فى حياة معاوية.

****

الفصل الرابع

خروج الحسين بن على وواقعة كربلاء ومقتله



الفصل الرابع

* خروج الحسين بن على وواقعة كربلاء ومقتله :-

برغم أن هذه الحوادث وقعت خارج نطاق المدينة ، ولم تجرِ فصولها على مسرحها ، إلا أنه يجب ألا نغفل الوقوف عندها ولو قليلاً مع عدم الإسهاب فى تفاصيلها ، وذلك نظراً لارتباط الأحداث التاريخية بعضها ببعض وتشابك أصولها - فقد علمنا أن الحسين بن على رضى الله عنه تمكن من الخروج من المدينة من غير أن يبايع ليزيد بن معاوية بعد وفاة والده وخشيه من إجبار الوليد بن عتبة والى المدينة ، للحسين على المبايعة ، خرج من المدينة إلى مكة حيث أعلن تملصه من البيعة السابقة التى أجبره عليها معاوية هو وأبناء الصحابة الآخرين ، وأعلن أن تلك البيعة قد تمت تحت التهديد والإرهاب وخوفاً من القتل - غير أن موقف أبناء الصحابة فى هذه المرة كان غيره أيام معاوية فقد وقفوا عندئذ وقفه رجل واحد متحدين بكلمة واحدة ومتفقين على رأى واحد ، ولكن سرعان ما تغير هذا الموقف بعد وفاة معاوية[١] سرعان ما بايع عبد الله بن عمر بن الخطاب -الرجل الذى أوقذته العبادة وزهد فى التنازع على السياسة والحكم سرعان ما بايع يزيد بن

(١) تاريخ الأمم والملوك الطبرى جـ٢ ص ٢٢٢

معاوية على يد الوليد بن عتبة ، وذلك حينما أيقن بأن البيعة قد وفدت من البلدان وأن أمر يزيد قد بدأ يتدعم – وكذلك نحا عبد الله بن العباس بن أبى طالب نحو إبن عمر وبايع هو الآخر ، وكان الرأى هو أن تجتمع كلمة الأمة اجتماعاً حقيقياً على اختيار خليفة واحد أما عبد الله بن الزبير فقد سبق الحسين فى الخروج من المدينة إلى مكة من غير أن يبايع وان كان يعمل فى الحقيقة لغرض نفسى يصل به إلى منصب الخلافة وإن كان يعلم أن ذلك لن يتم له فى حياة الحسين بن على ، وأنه لا يمكن أن يقدم هو ويؤخر الحسين ، وبذلك لم تتفق كلمة أبناء الصحابة هذه المرة على رأى موحد – وهذا أدى إلى عدم اجتماع كلمتهم وفشلهم وتفوق الأمويين عليهم وطبيعى أنه لم يلبث أن عزل الوليد بن عتبه عن المدينة وذلك لفشله فى أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير وتمكنهما من الفرار منه خارجين على الدولة الأموية ، وحل محله أموى آخر ، هو عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان حتى ذلك الحين لا يزال بمكة ،[1] فلما بلغ أهل الكوفة نزول الحسين عليه السلام مكة وأنه لم يبايع ليزيد ، وفد إليه وفد منهم عليهم أبو عبد

---

(١) مقاتل الطالبين – أبو الفرج الأصفهانى ص٦٨

الله الجدلى ، وكتب إليه شبث بن ربعى وسليمان بن صرد [1] والمسيب بن نجبه ووجوه أهل الكوفة يدعونه إلى بيعته وخلع يزيد، وذلك فى العاشر من رمضان سنه ٦٠ هجرية ، فأراد أن يستوثق مما يقولون ويتأكد من قوة المؤيدين ، وكفاية الأنصار ، ولكن لم ينفعه الحذر مما قدر القدر – فقد دعى ابن عمه مسلم وأمره أن يذهب إلى الكوفة فإذا أيقن بإمكان نجاح الدعوة له ، وجمع له الأنصار وأرسل إليه أن يشخص إليها فذهب مسلم إلى الكوفة ، وأمته الشيعة فأخذ بيعتهم للحسين رضى الله عنه وكانوا عدداً كبيراً وصل إلى [2] اثنى عشر ألفا ، ولكن مسلم وجد نفسه مضطراً إلى قتال عبد الله بن زياد – وكان يزيد قد عينه والياً جديداً على الكوفة مكان النعمان بن بشير الأنصارى الذى عزل لأنه كان حليما ناسكا يحب العافية ويكره العنف ، والمنذر بن عمرو بن الجارود ، وشريك بن الأعور وحشمه وأهله حتى دخلوا الكوفة وعليه عمامة سوداء وهو متلثم والناس ينتظرون قدوم الحسين عليهم وهم يظنون هو، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس حتى يسلموا عليه ، ويقولوا " أهلاً بابن رسول الله ﷺ ، قدمت خير مقدم " ، ورأى من

---

(١) المسيب بن نجبه - هو المسيب بن نجيه بن ربيع بن غوث بن هلال ابن شمخ بن فزارة – أحد أمراء عين الوردة مع سليمان بن صرد وكانوا من أصحاب على بن أبى طالب رضى الله عنهم.

(٢) مروج الذهب للمسعودى جـ٢ ص ٨٦ طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ.

الناس من تباشرهم بالحسين ما ساءه ، فأقبل حتى دخل القصـــر ، ونما نزل ابن زياد القصر ، نودى فى النـــاس " الصـــلاة جامعـــة فاجتمع إليه الناس فخرج إليه وخطب خطبة قال فيها :" أما بعد فإن أمير المؤمنين أصلحه الله ولانى مصركـــم ، وثغركـــم وفيئكـم ، وأمرنى بإنصاف مظلومكم ، وأعطاء محرومكم ، والإحسان إلـــى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدة على مريبكم ، فأنا لمطيعكـــم كـــالوالد الشفيق وسيفى وسوطى على من ترك عهدى ... الخ . ، فلما علم مسلم بذلك نادى بشعاره [1] فاجتمع له من أهل الكوفة أربعة آلاف، وقصد القصر الذى به عبد الله بن زياد ، وكان عبيد الله قد جمـــع وجوه أهل الكوفه عنده فلما وصل مسلم إلـــى القصـــر ، ومعـــه أنصاره من أهل الكوفة ، أشرف وجوه أهل الكوفة على عشـــائرهم وجعلوا يكلمونهم ويصرفونهم عن مسلم ، فأخذ أصحابه يتســـللون من حوله ، حتى أمسى ومعه خمسمائة ، فلما اختلط الظلام ذهبـــوا أيضاً ، وبقى وحده يتردد فى الطرق ، ثم آوته امرأة كـــان ابنـــها مولى لمحمد بن الأشعث فعرف أمره ، وانطلق إلى ابن الأشـعث ، فأخبره بأمر مسلم . وبعث عبيد الله صاحب شرطته ومعه رجاله ، فأحاطوا بالدار فخرج إليهم مسلم وقاتلهم قتـــال الأبطـــال وردهـــم مرتين ، وهو يقول :-

---

(١) تاريخ الأمم والملوك الطبرى جـــ ص٢٢٧

أقسم لا أقتل إلا حـــــــرا وإن رأيت الموت شيئاً مرا
كل امرئ يوماً ملاق شراً أخاف أن أكذب أو أغـــرا

وبارزه من المحيطين بالدار، بكير بن حمران ، فجرح كـــل منهما صاحبه ثم أعطى له الأمان ، وأخذ إلى عبيد الله بـــن زيـــاد مجرداً من سلاحه ، فأسلمه لبكير بن حمران ، فذبحه فوق القصـــر ورمى رأسه إلى الأرض وألحق بها جثته ، وفعل عبد الله بن زيـــاد مثل ذلك بعروة بن هانى المرادى الذى كان أراد نصـــرة مســـلم ، وأرسل بن زياد رأس مسلم إلى دمشق ، وصلبت جثته فى الكوفة ، فكان أول رأس أرسل إلى الشام وأول جثة صلبت من بنى هاشـــم ، وهكذا انتهى أمر مسلم نهاية محزنة فى ٨ أو ٩ من ذى الحجة سنه ٦٠ هجرية وخذله الكوفيون كما خذلوا الإمام على بن أبى طـــالب وابنه الحسن من قبله ، والحسين بن على من بعده .

[١] وكان مسلم بن عقيل قد كتب إلى الحسين رضى الله عنـــه بأخذ البيعة له ، واجتماع الناس عليه ، وانتظارهم إياه ، هذا وقـــد لقيه عبد الله بن الزبير فى تلك الأيام وشجعه على الخـــروج إلـــى الكوفة ليمهد لنفسه فى الحجاز ، فقد كان وجود الحسين بالحجـــاز ثقيلاً على نفسه فأحب أن يخرج الحسين إلى العـــراق ليخلـــو لـــه السبيل فى الحجاز ، هذا وقد قوى عزم الحسين تشجيع عبد الله بـــن

---

(١) مقاتل الطالبين - الأصفهانى ص٧٩ .

الزبير له على الخروج إلى الكوفة برغم نصيحة عبد الله بن العباس الذى برهن على أنه نعم الناصح لأبناء عمه وأن لم يكونوا يصغون لنصائحه المفيدة ، فقد جزع عبد الله بن العباس من عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة وتمثل بهذين البيتين عندما قابل عبد الله بن الزبير :-

يا لك من قنبرة بمعمر

خلا لك الجو فبيضى وأصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى

هذا الحسين خارجاً فاستبشرى

وفى الثامن من ذى الحجة ، خرج الحسين بن على من مكة مع أهله وولده ، رغم نصيحة أخيه محمد (بن الحنفيه) بن على بن أبى طالب وأهله له إلا يغرر بنفسه ثقةً بأهل الكوفة الذين خانوا أباه وأخاه من قبل ، وكان قد شجعه ما كتب إليه مسلم فى الشطر الأول من مهمته ، يخبره ببيعة اثنى عشر ألفا ، ويطلب إليه القدوم إلى الكوفة ولقد علم الحسين وهو فى طريقه ، بالنهاية المؤلمة التى انتهى إليها أمر مسلم بن عقيل ، ولكنه رغم ذلك لم يستطع ، أو هو لم يكن يرغب أن يرجع عن خطته وذلك لسببين أولهما أن أخوة مسلم وأبناءه صمموا على المضى إلى الكوفة للأخذ بثأر مسلم ، والسبب الثانى وهو الذى نرجحه أن الحسين ظن أن أهل الكوفة سرعان ما يعودون للمبايعة حال ظهوره بينهم فيشتد بهم

ساعده ويقوى على نيل غرضه والكيد من الخصومة والأخذ بثــأر مسلم منهم – هذا وقد أرسل عبيد الله بن زياد عمرو بن سعد بــن أبى وقاص على رأس قوة لقتال الحسين وقتله واعداً إياه بتوليتــه ولاية الرأى وهدده بمنعه من الولاية إذ رفض – قتــل الحســين ، فتوجه عمرو معه هذه القوة لقتال الحسين فلما قاربه وتوافقوا ، قـلم الحسين عليه السلام فى أصحابه خطيباً (فقال : " اللهم أنك تعلــم أنى لا أعلم أصحاباً خيراً من أصحابى ، ولا أهل بيت خــير مــن أهل بيتى ، فجزاكم الله خيراً ، فقد بررتم وعــاونتم ، والقــوم لا يريدون غيرى ، ولو قتلونى لم يبتغوا غيرى أحداً فإذا جنكم الليــل فتفرقوا فى سواده وانجوا بأنفسكم ، فقام إليه العباس بن على أخوه، وعلى ابنه وبنو عقيل فقالوا : " أو نيل ثأر مسلم أو نلحق به –هــذا وقد عرض الحسين على أمير الجيش أن يذهب إلى الخليفة يزيــد فى دمشق ليضع نفسه تحت تصرفه أو يذهب إلى حــدود الدولــة الإسلامية وأطرافها لحمايتها من غارات الترك ، ولكن أبن زيــاد رفض إلا أن ينزل على حكمة ، وهنا انضم أحد أبطــال الجيــش الأموى [١] إلى جانب الحسين حينما وضحت لــه خطــورة هــذه المؤامرة وماهية مقصدها ، وبرغم ذلك قتل الحسين عليه الســلام بعد ما أستشهد أخوته وأولاده وأولاد أخيه وأولاد أعمامه ، وهــو يقاتل جنود الكوفة فى كربلاء على نهر الفرات فى اليوم العاشــر

---

(١) هو الحر بن يزيد التميمى

من محرم سنه ٦١ هجرية (١٠ أكتوبر ٦٨٠ م) وأمر إبن زيـــاد بأن تطأ الخيل جسد الحسين وان يُرسل رأسه إلى الخليفة يزيد فـــى دمشق ، بعد أن اجتزها شمر بن ذى الجوشن وهكذا انتهت خطـــة الثورة انتهاءً مؤلماً . ولكن استشهاد الحسين على هذه الصورة كأن له شأن معنوى كبير وكان له تأثير عظيم عند الشيعة وغير الشـيعة فى كافة أرجاء العالم الإسلامى كله وفـــى المدينـــة علـــى وجـــه الخصوص ، وحتى يزيد نفسه تأثر بهذه الحادثة وأعلن عن أســـفه لذلك قائلاً : " قاتل الله بن زياد فقد كنت أرضى دون هذا بكثير " .

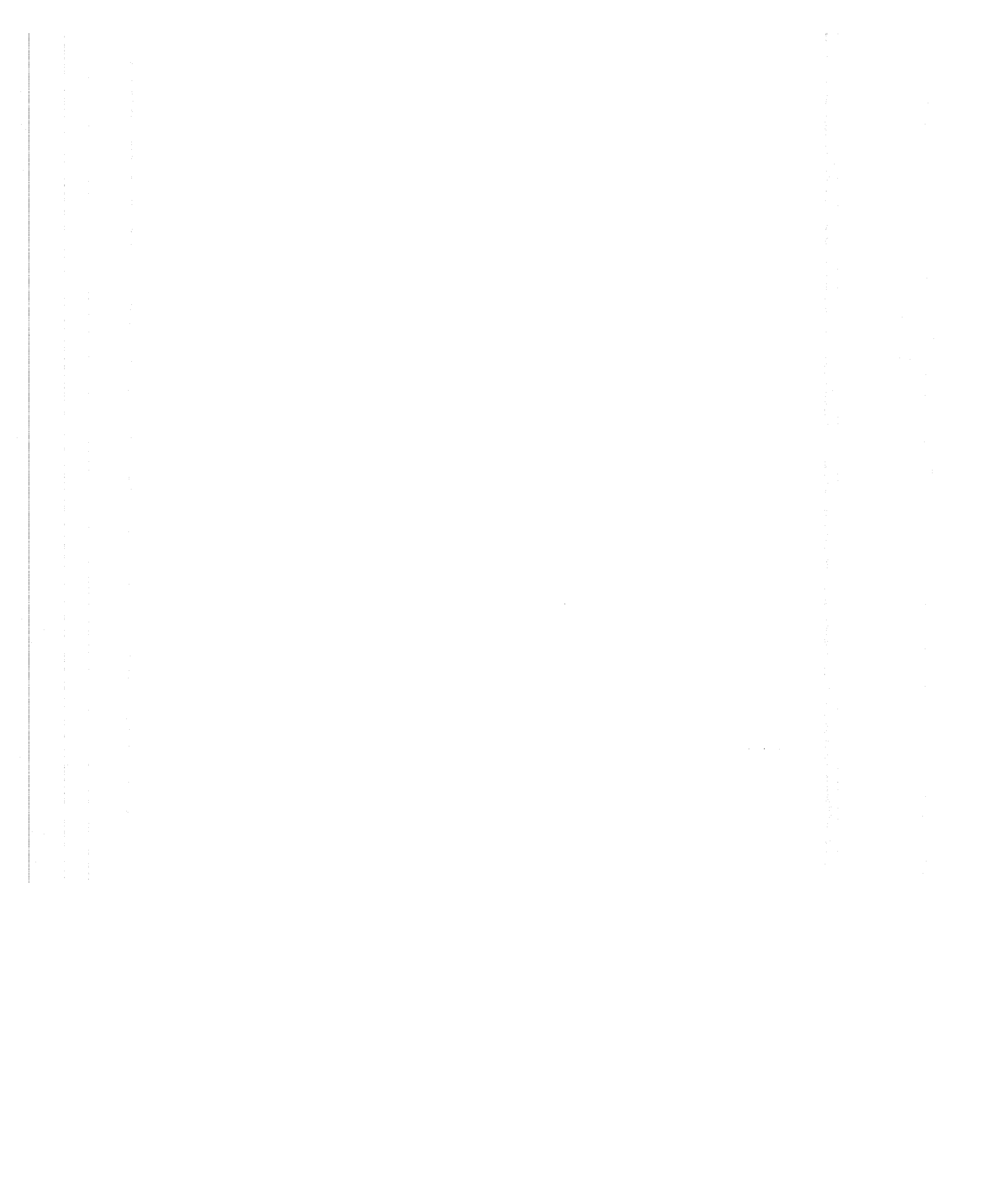
هذا وكان من أثر قتل الحسين أن خلا الجـــو لعبـــد الله بـــن الزبير، حتى قال الناس بعد مقتل الحسين ليس لأحد أن ينازع ابـــن الزبير ، فهو الأحق بالخلافة – هذا وبرغم أن ابن الزبير اتخذ مكة مركزاً وقاعدة لحركته إلا أنه استطاع أن يشجع المدينة على الثورة ضد الأمويين ، وان بدأت ثورتها شبه مستقلة عن الحركة الزبيرية فى بادئ الأمر أو هى مستقلة بالفعل فلم يحدث تعاون بيـــن مكـــة والمدينـــة بل اقتنع ابن الزبير بخطته الدفاعية وهى الاعتصام بمكة وترك المدينـــة تتجـــرع مرارة الهزيمة فى الحره وهو ما سنتناوله فيما بعد.

****

****

الفصل الخامس

ثورة عبد الله بن الزبير وموقف المدينة من حركته



الفصل الخامس

ثورة عبد الله بن الزبير وموقف المدينة من حركته :-

مما سبق نرى كيف تزعم عبد الله بن الزبير أبناء الصحابة في معارضة البيعة ليزيد بن معاوية ، وكيف كان هو المتكلم باسمهم ، ولمسنا رأى معاوية فيه حينما حذر ولده يزيداً من عبد الله بن الزبير على وجه الخصوص بينما أوصاه بالحسين وهون عليه أمر الآخرين ، ثم علمنا كيف تمكن عبد الله بن الزبير من الفرار من المدينة وتبعه بعد ذلك الحسين ، مما أثار هذا يزيد فعزل واليه الوليد الذى أخفق فى حمل هؤلاء على البيعة وأضاف حكم المدينة إلى عمرو بن سعيد بن العاص واليه على مكة - غير أن ابن الزبير وهو فى مكة لقى الأمن والطمأنينة اللتين افتقدها فى المدينة بفضل أنصاره وأتباعه الذين اكتسب تأييدهم وعطفهم حينما ذكر أن العائذ بالبيت أى أنه فى حمى الكعبة بيت الله الحرام ، ولما بدى له أنه من القوة بحيث يستطيع مناوءة الأمويين جاهر بالعصيان وصلى بأصحابه ناحية ، بعيداً عن الوالى عمرو بن سعيد بن العاص الذى خشى أن يحل به ما حل بسلفه الوليد بن عتبه من عزل عن الولاية نتيجة تساهله وتسامحه مع الحسين وابن الزبير واتبع سياسة الشدة والعنف فعين على شرطته واحداً من أعداء عبد الله بن الزبير وهو أخوه عمرو بن الزبير الذى كان يكره أخاه عبد الله كرهاً شديداً ، فنكل بأنصار عبد الله بن الزبير

بالمدينة وعذبهم عذاباً شديداً ومنهم أخوه المنذر بن الزبير وابنــــه محمد بن المنذر [1] ومع ذلك فقد مضى عبد الله بن الزبـــير قدمـــا وخطا خطوة عملية فى خروجه على الدولة الأموية ، فقـــد منــع الحارث بن خالد المخزومى نائب عمرو بن سعيد فى مكة مـــن أن يصلى بالناس [2] فغضب الخليفة يزيد بن معاوية واقسم ألا يقبـــل بيعة عبد الله ابن الزبير إلى على صورة مهينة وقد أراد عمرو بـــن سعيد بن العاص أن ينفذ طلب الخليفة يزيد وأن يقبض على عبد الله بن الزبير بالقوة ويرسله إلى يزيد مما يستلزم غزو مكة ، الأمـــر الذى عارضه مروان بن الحكم برغم أنه كان شيخ بنى أمية بعــــد وفاة معاوية ، فقد عارض غزو مكة وطلب من الوالى عمرو بـــن سعيد أن يترك عبد الله بن الزبير فقد كبرت سنه وولى أجله وقـــال له : " والله لئن لم تقتلوه ليموتن " [3] ، فقال له عمرو بن الزبـــير والله – لنقاتلنه فى جوف الكعبة على رغم من رغم . فقال مـــروان والله أن ذلك ليسوءنى وكذلك هال كثيراً من المسلمين فكرة غــــزو مكة وبينوا لعمرو بن الزبير أن مكة بلد حـــرام علـــى القتـــال ولا يصلح غزوها [4] ولكن عمر و بن الزبير أبى إلا أن يمضى فـــى عداوته لأخيه فسار من المدينة فى مقدمة من ألفى رجـــل قـــاصداً

---

(١) ابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ٤ ص٨

(٢) أبن كثير : البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٤٩

(٣) الطبرى تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٢٥٥ .

(٤) الكامل فى التاريخ جـ ٤ ص ٨ .

أخيه عبد الله بن الزبير كله ، غير عابئ بحرمة البيت الحرام ، أو بعاطفة الأخوة ، بل كان همه الانتقام من أخيه وإرضاء الوالي الأموى ، ولكن حلت الهزيمة بهذا الأخ العاق[1] ، وتحقق النصر لعبد الله بن الزبير فقد نجح هو وأنصاره من هزيمة جيش أخيه عمرو ، وألقى القبض عليه وحكم أنصاره عليه بالسجن ، ولكنه ضرب في السجن حتى مات غير ما سوف عليه[2] غير أن الموقف في مكة وإن كان عبد الله بن الزبير قد انتصر على أخيه عمر أو سجنه واقتص منه ، وعظم شأنه في بلاد الحجاز ، واشتهر أمره ، وبعد صيته ، ومع هذا كله لم يكن معظماً عند الناس مثل الحسين ، بل كان ميل الناس إلى الحسين بن على بن أبى طالب قوياً لأنه السيد الكبير ، وابن بنت رسول الله ﷺ ، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه — هذا وقد شعر بن الزبير بمنافسة الحسين ، ولكنه كان صديقاً محباً له ، وحرص دائماً على إبقاء صلة المودة والصداقة ، ما دام يجمعهما هدف مشترك . وكان ابن الزبير ممن يفدون على الحسين ، ويجلسون إليه ، ويستمعون إلى حديثه وان كنا نعزو هذه الصداقة إلى احترام

---

(١) كان عمرو بن الزبير عدواً لدودا لأخيه عبد بن الزبير برغم إحسان الأخير إليه ، فقد حدث أن أمر معاوية ابن أبى سفيان لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائه ألف ، ففتح الكتب وصير المائة مائتين ورفع زياد حاسبه فأنكرها معاوية وطلب بها عمرو حبسه حتى قضاها عنها أخوه عبد الله بن عمر. مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٥ .

(٢) بن كثير البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٥٠ .

ابن الزبير لمكانة الحسين السامية التى تفوق مكانته ، وأيضاً لأنـــه كان يخفى وراء شخصية الحسين أطماعه الشـــخصية ، ويســـتغل موقف الحسين المناوئ للدولة الأموية ، إذ أن هذه الصداقة لا يمكن أن تكون خالصة ، وابن الزبير ينصح الحسين بالخروج من مكـــة إلى الكوفة لكى يخلو له الجو [١] وإن كان المؤرخ الطبرى وهـــو من ثقاة المؤرخين ، يذكر أن عبد الله بن الزبـــير عـــرض علـــى الحسين أن يقيم فى مكة ولا يرحل إلى الكوفة ، وعرض عليه تقديم المساعدة ، فيذكر الطبرى أن إبن الزبير كان يقول للحســين : " إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر ، فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك ، فقال له الحسين : " إن أبى حدثنـــى أن بـــها كبشـــاً يستحل حرمتها ، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش " ، فقال له ابــن الزبير :" فأقم إن شئت وتولينى أنا الأمر فتطاع ولا تعصى . فقـــال الحسين :- وما أريد هذا أيضاً ، ونحن هنا نعارض الطبرى فـــى روايته هذه ، فلا يمكن أن يكون عرض عبد الله بن الزبـــير هـــذا للحسين صادق الطوية فهو لا يعمـــل لمصلحـــة الحســين وإنمـــا لمصلحته الشخصية ، يعزز هذا موقفه فى بداية خلافة على بن أبى طالب وخروجه مع والده وحثه وتعريضه لوالده على القتال لينـــال حظاً من الخلافة سواء له أو لوالده وذلك حينمـــا شـــجعته الســـيدة عائشة على ذلك ، فبديهى أن ابن الزبير لا شك عدو قديم للبيـــت

---

(١) الطبرى تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ١٣

الهاشمى أيضاً وإنما جمعته بالحسين المصلحة المشتركة والجهاد ضد عدو مشترك وهو البيت الأموى ، [1] هذا وقد استفاد ابن الزبير من بعض العيوب التى شابت تنظيم حركة الحسين السياسية، فعمل ابن الزبير على تلافيها ، والاستفادة من تجارب الماضى ، فاتخذ من الحجاز مركزاً لحركته السياسية ، بعد أن لمس تخاذل الكوفة عن نصرة الحسين ، كما كان يعلم أن بلاد العراق كانت تزخر بالأحزاب الكثيرة المتنافسة المتناحرة ، وخاصة الشيعة والخوارج والمرجئة إلى جانب حركة الموالى ، وغيرها ، ومع ذلك لم يهمل عبد الله بن الزبير أمر العراق ، فقد كان فى حاجة إلى الرجال والأموال ، هذا وقد أدرك عبد الله بن الزبير مدى تأثير ضعف الوالى الأموى أو قوته فى نجاح الحركة السياسية أو إخفاقها ، فقد كان تساهل والى المدينة الوليد بن عتبه بن أبى سفيان مع الحسين وابن الزبير مما جعلهما ينجوان من قبضته فيفران من وجهه إلى مكة ، بينما كان عمرو بن سعيد بن العاص والياً حازماً وقد رأيناه يوجه جيشاً بقيادة عمرو بن الزبير لقتال أخيه . وكان تساهل النعمان بن بشير الأنصارى الوالى الأموى بالكوفة قد مهد الطريق أمام مسلم بن عقيل مبعوث الحسين للفوز ببيعة أهل الكوفة، ولكن حزم عبد الله بن زياد هو الذى حسم الموقف وأحدث

---

(١) هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن أسد بن عبد العزيز بن قصى أى أنه خارج البيت الهاشمى والأموى فهو من بيت أسد بن عبد العزى.

مأساة كربلاء – ولذا عمل عبد الله بن الزبير على أن يكون الـولاة الأمويين فى بلاد الحجاز ممن تميزوا بالتساهل والتسامح فقد أثـار ابن الزبير عاصفة من الإشاعات جعلت الخليفة الأموى يزيد بـن معاوية يعزل واليه عمرو بن سعيد ويولى بدله الوليد بن عتبه ابـن أبى سفيان مرة أخرى وكان عبد الله بن الزبير قد لمس تساهله معه ومع الحسين بن على ، ولكن الوليد كان قد استفاد مـن تجـارب الماضى ، فحاد عن تسامحه إلى سياسة الحزم والشدة ، ولجأ ابـن الزبير إلى الحيلة والدهاء حينما [1] ثقلت عليه ولايـة هذا الأمـير فاحتال بحيلة أدت إلى عزله ، فكتب إلى يزيد يقول : " أنك بعثـت إلينا رجلاً أخرق لا يتجه لأمر راشد ولا يرعوى لعظمـة الحكيـم ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق لين الكتف رجوت أن يسهل مـن الأمور ما استوعر منها ، وأن يجتمع ما تفرق ، فانظر فى ذلـك ، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله ، وهكذا تمكن عبد الله بن الزبير من الإيقاع بين الخلفية يزيد وواليه الوليد بن عتبه فـأمر يزيد بعزله وولى بدلاً منه عثمان بن محمد بن أبى سـفيان وهـو شاب ليس على شىء كبير من الدهاء [2] فتى ، غر ، حـدث لـم يجرب الأمور ولم يحنكه السن ولم تضرسه التجارب وكان لا يكاد ينظر فى شئ من سلطانه ولا عمله .

---

(١) دكتور محمد جمال الدين سرور الحالة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ص ١٠٦

(٢) الطبرى تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ صـ ٢١٥ .

⚜ عوامل انتشار دعوة عبد الله بن الزبير :-

اكتفى الحسين بأن أعلن الثورة على الدولة الأموية ، ولكنه لـــم يبايع لنفسه بالخلافة ، وربما لم تمهله الأيام حتى يأخذ البيعة مـــن الناس . وكانت هذه البيعة تضفى على ثورتـــه صفـــة شـــرعية ضرورية لتوفر أسباب النجاح ، ولذا بادر بن الزبير بالبيعة لنفســه بالخلافة ليبدو أمام أنصاره كخليفة شرعى يدافع عـــن حقـــه فـــى للخلافة وليس ثائراً أو عاصياً . وبدا بن الزبير فى خطبة ومكاتباته واثقا من نفسه ، مصرا على حقه ، متمسكاً بخلافته ، فكـــان يبـــدأ خطاباته للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بهذه العبارة : " مـــن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان – هـــذا وقد كان الحسين بن على وعبد الله بن الزبـــير زعيمـــى حركـــة المعارضة لخلافة يزيد بن معاوية خاصة وللخلافة الأموية عامـــة حتى إذا استشهد الحسين ، قاد ابـــن الزبـــير لـــواء المعارضـــة . وتكاتفت عدة عوامل على انتشار دعوة ابن الزبير ونجاحها :-

أولاً : زهد أبناء الصحابة فى الخلافة :-

فقد عارض كل من عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العبـــاس ، ومحمد بن على بن أبى طالب . عارضوا معاوية حينمـــا طالبـــهم بالبيعة ليزيد ، كما تلكئوا فى البيعة بعد وفاة معاوية ، ولكن الوليـــد بن عتبه نجح فى الحصول على بيعتهم أخيراً ، وركنوا إلى الهدوء والطاعة ، حتى بعد مقتل الحسين ، فخلا الجو لابن الزبير .

ثانياً : تعدد ولاة الحجاز وضعف الحامية الاموية به

فقد كانت الحامية الأموية فى الحجاز على درجة كبيرة من الضعف ، لاعتقاد الخلفاء الأمويين أن المدينة ومكة هما قلب الدولة الاسلامية فلا داعى لمرابطة الجند فيهما فالجند مكانهم على اطراف الدولة لحمايتها من الغارات الخارجية ، أو لغرض الفتح ، أو الغزو فعند قيام الثورة على عثمان لم يجد الخليفة حامية للمدينة تحول بين الثوار وما فعلوه به ، وقد ركز الأمويون بعد ذلك جهودهم نحو العراق لتمركز الإمام على بن أبى طالب فيها ووجود أكثرية أتباعه وأشياعه من الشيعة فيه ، وكذلك انتقال الحجاز بما فيه المدينة ومكة إلى الصف الثانى وراء الشام والعراق ، فقد كان قوام الحامية فى المدينة مثلاً نفر قليل من الشرطة غير مدربين على القتال ولا يصلحون إلا للقبض على الخارجين على القانون ، دون الخارجين على الدولة ، وعلى عكس الشيء الذى ذكرناه عن ضعف الحامية فى الحجاز نرى قوتها فى العراق ومن ناحية أخرى فقد صار الولاة الأقوياء فى العراق أمثال المغيره ابن شعبه والى الكوفه وزياد بن أبيه والى البصرة ، وولده عبيد الله بن زياد بينما انعكس نجدة فى المدينة ومكة من تعيين الولاة الذين لا يتصفون بالعزم والحزم أمثال مروان بن الحكم والوليد بن عتبه وعمر بن سعيد بن العاص وعثمان بن محمد بن أبى سفيان ، ومما زاد الطين بله أن الشقاق والتنافس دب بين بعض هؤلاء الولاة ، فكادوا لبعضهم البعض حتى شغلوا بمنازعاتهم عن الحركات السياسية التى أخذت فى الظهور ، فلم يقضوا عليها وهى فى المهد - ثم أنهم لم يكونوا على حال من الاستقرار ، وإنما كانوا يغيرون ويبدلون مما أدى إلى اضطراب السياسة فى الحجاز - هذا وفى

رأى بعض المؤرخين أن الأمويين كانوا يختارون ولاتـــهم علـــى الحجاز من بين أولئك الممهدين فى النعمة والترف ، والذين تعودوا على الاستمتاع بما فى الحياة من عبث ولهو ، دون أن يذوقوا عناء العمل ومشقته.

ثالثاً: سياسة الأمويين الاقتصادية فى الحجاز :ـ

لا شك أن استقرار الأحوال الاقتصادية فى قطر مـــن الأقطـــار ، يؤدى حتما إلى استقرار الأحوال السياسية فيـــه ، وإذا علمنـــا أن البيئة الحجازية فقيرة ، لأدركنا أن النقص فى سياســـة الأمويين الاقتصادية نحو الحجاز سيؤدى حتماً إلى زيادة بؤس أهله كمـــا أن معاوية قد تعمد إضعاف الحجاز سياسياً واقتصادياً ، فلـــم يجُـدل للحجازيين فى العطاء مما اضطرهم إلـــى بيـــع ممتلكاتـــهم التـــى اشتراها منهم بأبخس الأثمان وضيق على بعضهم من الذين ظـــن أنهم ضمن الذين ثاروا على عثمان [1] وكمثال اشـــترى معاويـــة حدائق حسان بن ثابت وبعض منازل زوجات الرسول — صفيـــة وعائشة تلك الحجرات التى شهدت حياة الرســـول عليـــه الصـــلاة والسلام كما شهدت مماته. " فلما ظهرت حركة بـــن الزبـــير رأى أهل الحجاز أنها تخلصهم من هذه السياسة الأموية —قال بعض أهل المدينة :" ... أن هذه الأموال كلها لنا ونالتنا المجاعة ، فاشـــتراها معاوية بجزء من مائة من ثمنها ، وروى اليعقوبى أنه حينما أرسل

---

(1) P.la mmense .J.1908 – Etudes sur la Regne du calife omaiyade moauia er p.246.

يزيد إلى عبد الله بن عباس بعض المال مكافأة له على امتناعه عن البيعة لابن الزبير كتب إليه يقول : " فلعمرى ما تؤتينا مما فى يدك من حقنا إلا القليل ، وأنك لتحبس عنامنه العريض الطويل " وحاول يزيد أن يُحسن الأحوال الاقتصادية فكتب إلى أهل المدينة : " فإن أقروا بالطاعة ونزعوا عن غيهم وضلالهم ، فلهم علّى عهد الله أن لهم عطاءين فى كل عام ما لم أفعله بأحد من الناس طول حياتى ، عطاء فى الشتاء وعطاء فى الصيف ، ولهم على عهد أن : أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا ، والعطاء الذين يذكرون أنه احتبس عنهم فى زمان معاوية فهو علىّ لهم وافراً كاملاً. [1] وهذه الرسالة تدل على أن معاملة أهل الحجاز كانت تخالف معاملة الأمويين لأهل الشام وأن الشام أصبح مكاناً للطبقة الأرستقراطية الجديدة الحاكمة بينما انحدر الحجاز بمدينتيه العريضتين المدينة ومكة إلى أقل من مستوى الشام.

رابعاً: السخط العام على الحكم الأموى :

تحولت الخلافة عن طريق الشورى والانتخاب إلى التعيين والوراثة مما أغضب الكثير من المسلمين ، كما استعان ببعض الولاة قساة القلوب من أمثال المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه ، كما قصروا المناصب الهامة على الأمويين ، فكره المسلمون الحكم الأموى وساعدوا كل الخارجين على الأمويين ، وفى مقدمتهم عبد الله بن الزبير .

---

(١) بن قتيبة الإمام والسياسة جـ١ ص ١٥١

خامساً : عبث يزيد وتقوى ابن الزبير

كان ابن الزبير صالحاً تقياً فكان كما وصفه بن الأثير: [1] " فليلـــه قائم حتى الصباح وليله راكع حتى الصباح ، وليله ســـاجد حتـــى الصباح " أما يزيد بن معاوية فكان كما وصفه عبد الله بن الزبـير : " يزيد الخمور يزيد الفجور ، ويزيد الفهود ، ويزيد القرود ، ويزيد الكلاب ، ويزيد النشوات ويزيد الفلوات (٢).

سادساً : مصرع الحسين :ـ

بعد مصرع الحسين فى كربلاء ، أظهر بن الزبير دعوته فوقـــف يخطب فى المسلمين ، فهاجم يزيد فى أخلاقه وسجاياه وإقباله علـــى الملذات ، ثم بكى حسيناً واستبكى الناس عليه ، ومدحه وأطنب فـــى مدحه ، وسب أهل الكوفه ولامهم على تخاذلهم عن نصرة الحسين.
وما كان ينتهى من خطبته حتى هب المسلمين طالبين منه أن يبـــايع لنفسه ، ولكنه رأى ألا يجيبهم إلى ذلك . وربمـــا كـــان يعتقـــد أن الوقت لم يحن بعد ليعلن نفســـه خليفـــة ، وربمـــا أراد أن يظـــهر للمسلمين زهده فى الخلافة ، " فثار إليه أصحابه فقالوا لـــــه أيـــها الرجل أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد إذ هلك الحسين الذى ينـــازعك هذا الأمر ، ولكنه كان يبايع الناس سرا ويظهر أنه عائذ بـــالبيت ، هذا وقد أراد عبد الله بن الزبير أن يحصل على بيعة ما بقى مـــن كبار أبناء الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، ولكنهما

---

(١) ابن الأثير - الكامل فى التاريخ جـ٤ ص ١٥٠ .
(٢) البلاذى - أنساب الأشراف جـ٤ ص ٣٠ .

سبق أن كانا قد بايعا يزيداً عن توليته ، فأخفق ابن الزبير في حصوله على البيعة وإن كان امتناع ابن العباس عن البيعة لابن الزبير لم يكن نتيجة إخلاصه ليزيد ، أو اقتناعه بأحقية بني أميه بالخلافة فقد كتب ابن عباس إلى يزيد رسالة جاء فيها : " أما بعد بلغني كتابك بذكر دعاء ابن الزبير إياى إلى نفسه وامتناعي عليه في الذي دعاني إليه من بيعته ، فأن بلغك ذلك كما بلغت فلست حمدك أردت ولاودك ..... وسألتني أن أحث الناس عليك ، وأخذ لهم عن ابن الزبير ، فلا ولا سرورا ولا حبورا ، وأنت قتلت الحسين بن على "[1] وشاءت الأقدار أن تساعد بن الزبير فإن الوليد بن عتبه بن أبى سفيان ، لم ينس أنه كان والياً على المدينة فترة طويلة في عهد معاوية ، وأن يزيد قد عزله عنها لإتهامه بالتساهل مع إبن الزبير والحسين ، ورأى أن ولاية عمرو بن سعيد بن العاص قد طالت ، وبدأ يتطلع إلى العودة إلى الحكم ، فبعث إلى يزيد يتهم عمرا بالتهاون في مناهضة ابن الزبير وكانت كل الشواهد تدل على صدق هذا الاتهام ، فاستجاب يزيد له وعزل عمرو بن سعيد وعين الوليد بن عتبه بدله ، وخرج عمرو إلى الشام ولقى الخليفة ,اخذ يدافع عن نفسه دفاعاً يدل على مقدار اتساع حركة ابن الزبير ومدى نجاحها فقال : " يا أمير المؤمنين ، الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأن جل أهل مكة والحجاز قد كانوا مالوا معه ، وهووه وأعطوه الرضا ، ودعا إليهم بعضه

---

(١) اليعقوبى تاريخ البلدان جـ ٤ ص ٢٢١ .

بعضا سراً وعلانية ، ولم يكن معى جند أقــوى بــهم عليــه لــو ناهضته، وقد كان يحذرنى فيحتذر منى ، وكنت أرفق به وأداريــه لأتمكن منه فأثب عليه ، مع أنى قد ضيقت عليه ومنعته من أشــياء كثيرة لو تركته وإياها كانت له معونة ، جعلت على مكة وشــعابها وطرفها رجالاً لا يدعون أحد يدخلها حتى يكتب إلى بإسمه وباســم أبيه ومن أى بلد هو وما جاء به وما يريد. فإن كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريده رددته صاغراً ، فإن كان ممن لا اتهم خليــت سبيله . هذا وقصد الوليد بن عتبه المدينة وأراد أن يثبت للخليفة أنه أبعد همه من سلفة عمرو بن سعيد بن العاص ، ولكن إبن الزبــير أدرك حماسته ووقف على أغراضه ، فكان كلما طلبه الوليد تمنــع وإحتزر فلا يستطيع إليه سبيلا وشاءت المقادير أن تجعل الوليد بين نارين : ابن الزبير الذى أخذت حركته تزداد يوماً بعد يوم ، ونجده بن عامر الحنفى الذى ثار باليمامة بعد مصرع الحســين وخــالف يزيد ولم يخالف بن الزبير وأن لم ينطو تحت لوائه ، ولكن نجــده بن عامر الحنفى كان يلقى بن الزبير فيكثر محادثته حتــى يظــن الناس أنه سيبايعه ، هذا وقد أفلح عبد الله ابن الزبير فــى تنحيــة الوليد عن الولاية كما أسلفنا وحل محله عثمان بن محمد بن أبــى سفيان الذى بدأت بفاتحة أعماله السياسية ثورة المدينة .

ثورة المدينة وموقعة الحرة : ـ

بدأ عثمان بن محمد بن أبى سفيان الوالى الجديد على المدينة أعماله السياسية بأن جمع من المدينة وفداً كبيراً من أشراف الأنصار والمهاجرين على السواء والذين كانت لهم الكلمة المسموعة عند الناس ، وأرسلهم إلى يزيد الخليفة الأموى بدمشق ، ظناً منه أن إكرام يزيد لهم يقنعهم بأحقيته بالخلافة دون عبد الله بن الزبير ، فيعود أهل المدينة ويكونوا لساناً ناطقاً معبراً عن رغبات يزيد ، يناهضون دعوة ابن الزبير ، هذا وقد شجع الوالى على ذلك أنه لم تكن أهواء أهل المدينة مع عبد الله بن الزبير بصفة حاسمة ، ولكنها لم تكن مع بنى أمية على كل حال ، وكان والى المدينة كما قدمنا يأمل أن يستطيع يزيد ضمهم إلى جانبه بفضل ما للمال من قوة الإقناع ، كما كان يفعل معاوية من قبل وكما أوصى به ولده يزيد من قبل وفاته ، قدم وفد أهل المدينة على الخليفة يزيد فى دمشق ، وترأس الوفد عبد الله بن حنظله الغسيل ، والمنذر بن الزبير ، وعبد الله بن أبى عمرو بن خوص وهم من أشراف المدينة ، هذا وكان يزيد عند حسن ظن وإليه فقد بالغ فى الحفاوة بهم وإكرامهم ، ولكنهم ما كادوا يعودون إلى المدنية حتى بادروا إلى هجاء يزيد والتشهير به ، فقالوا " إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، ويشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده

القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب والفتيان ، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه ، [1] هذا وقد ثارت نفوس الناس فجأة عندما سمعوا بان بن الزبير قد خلع يزيداً ومالأه الناس على ذلك ، فقام رئيس الوفد الذى ذهب إلى دمشق عند يزيد ، وهو عبد الله ابن حنظله الغسيل [2] فقال : [3] " جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بنى هؤلاء ، لجاهدته بهم ، فقد أعطانى وأكرمنى ، وما قبلت منه عطاءه إلا لأتقوى به ، وقد خلعت يزيد ، كما خلعت . عمامتى ، ونزعها عن رأسه ، وتبعه الناس يخلع كل منهم عمامته أو نعله أو خفه أو ثوبه ، علامة على التبرؤ والخلع كما هى العادة ، حتى حصل من ذلك كوم كبير ، ثم أتى الناس عبد الله بن حنظله الغسيل ، فبايعوه وولوه عليهم ليحارب يزيداً ويحارب حكومة بنى أميه وهنا نقف عند نوع وماهية هذه المبايعة .

يقول الدكتور – محمد جمال الدين سرور فى كتابة الحياة السياسية فى الدولة العربية السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ص ١٠٧ – " وهكذا أصبح المبايعون بالخلافة ثلاثة : يزيد بن معاوية فى دمشق ، وعبد الله بن الزبير فى مكة وعبد الله بن

---

(١) الطبرى تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٣٦٨ .
(٢)حنظله أحد شهداء المسلمين فى أحد والذى اشتهر بأنه غسيل الملائكة أى أن الملائكة تولوا غسيله
(٣) الأصفهانى الأغانى جـ ١ ص ١٣ .

حنظله الغسيل فى المدينة وإذا أخذنا بهذا الـــرأى نجـــد أن ثـــورة المدينة كانت مستقلة تمام الاستقلال عن حركة عبد الله بن الزبير ، وأن السبب فى عدم اتحادها مع حركة بن الزبير هى أنه اعتصــــم بمكة واتخاذها مقراً لحركته وقاعدة لتوسعة وأهـــل المدينـــة إنمـــا يسعون إلى الرجوع بمدينتهم إلى المركز الممتاز الذى فقدته بزوال عصر الخلفاء الراشدين ، أو على الأحرى ، منذ انتقلت الخلافة من مدينتهم إلى الكوفة ثم دمشق ، ولكن نصح أن نشير إلى مـــا قالـــه المستشرق الألمانى فلهوزن [١] من أن الناس قد أتوا عبد الله بـــن حنظله الغسيل وبايعوه وولوه عليهم ليحارب يزيداً ويحارب حكومة بنى أمية أى أنه بويع على انه أمير وقائد وليس خليفة ولكن يعمـــل لحساب من ؟ ربما إذا تم له الأمر أن يرجع أمر الخلافة إلى ســـابق عهدها من الشورى بين المسلمين — أو ربما كان يود مساومة عبـــد الله بن الزبير ليذهب إلى المدينة إذا وجد فيها النجدة والرجال وإنها قادرة على أنها تصبح عماد قوة له ، فالرأى الأول يأخذ بأن ثـــورة المدينة مستقلة عن حركة بن الزبير والرأى الثانى يوجـــد إتصـــالاً بين الحركتين ونخرج من هذا برأى وسط وهو أن ثـــورة المدينـــة كانت بالفعل فى مرحلتها الأولى وحتى وقعة الحرة ، وحصار عبـــد الله بن الزبير فى مكة الحصار الأول ، كانت هذه الثورة مســـتقلة

(١) فلهوزن تاريخ الدولة العربية ص ١٥١ .

عن حركة إبن الزبير وإن كانت حركة ابن الزبير قـــد شـــجعتها ، وبذرت بذور الثورة فيها ، ويعزز هذا أن المنذر بن الزبير كـــــان أحد أعضاء الوفد الذى ذهب إلى دمشق ، وكان زميلاً لعبد الله بـــن حنظله ومن قواد ثورة المدينة ، وقد لعب دوراً خطيراً فـــــى هـــذه الثورة فقد أخذ يحرض أهل المدينة على الثورة ضد يزيد ويصفـــه أن يشرب الخمر ويسكر حتى يدع الصلاة ، وثمة نقطة أخرى تدل على أن مبايعة عبد الله بن حنظله إنما كانت مبايعة قيادة وليســــت خلافة ، فقد حاول محمد بن على بن أبى طالب المعـــروف بـــابن الحنيفة ، أن يدافع عن يزيد بن معاوية ، مما أثار غضـــــب أهـــل المدينة وظنوا أنه فى دفاعه عن يزيد أنما يكره الدعوة الزبيريـــة ، فعرضوا عليه أن يولوه حكم المدينـــة فأبى ابن الحنيفة ذلك ، بـــل ورحـــل عن المدينـــة إلى مكة .

غضب الخليفة يزيد بن معاوية لتنكـــر أهـــل المدينـــة لـــه ، وإقدامهم على سبه وشتمه ، فأراد أن يحذرهم ويهديهم إلى ســــواء السبيل فبعث مندوباً عنه هو النعمان بن بشير الأنصارى وهو مـــن أهل المدينة وقد كان والياً على الكوفة حين ذهب مسلم بن عقيــــل مندوباً عن الحسين بن على للدعوة له فيها وتسبب إهمال النعمــــان هذا فى النجاح المؤقت الذى أحرزه مسلم ، وقال له يزيـــــد – آت الناس وقومك فردهم عما يريدون ، فإنهم إن لم ينهضوا فى هـــــذا الأمر لم يجترئ الناس على خلافى وبها من عشيرتى من لا أحـــب

أن ينهض فى هذه الفتنه فيهلك ، وقدم النعمان بن بشير إلى المدينة، ودعا الناس إليه ، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وخوفهم الفتنه ، ووضح لهم أنه لا طاقة لهم بأهل الشام . فقال له عبد الله بن مطيع : " ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا وفساد ما أصلح الله من أمرنا ؟ وقام عراك شديد بين أهل المدينة والأمويين الذين قدموا مع النعمان ، وكما أخفق النعمان بن بشير فى مهمته أبان ولايته على الكوفة ، أخفق هذه المرة أيضاً فى وفادته إلى أهل المدينة وعاد إلى دمشق يجر أذيال الخيبة — ورأى يزيد أن يعيد الكرة ، فينذر أهل المدينة ويحذرهم وينصحهم ، فكتب رسالة إلى أهل المدينة ، وأمر واليه عثمان بن محمد أن يقرأها عليهم ، وفى ختام الرسالة يهدد يزيد أهل المدينة فيقول :" فو الله لئن وضعتكم تحت قدمى لأوطانكم وطأة أقيل بها عدوكم وأتركحم أحاديث تنسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود وأنه لا يأتينى منكم أدل على خلافكم ..." ولكن أهل المدينة ما كادوا يسمعون هذه الرسالة حتى انهالوا على الوالى والخليفة شتماً وسبا — اتفق أهل المدينة على خلع طاعة الخليفة يزيد بن معاوية ، وثاروا على الوالى الأموى عثمان بن محمد وعلى الأمويين المقيمين فى المدينة وكانوا نحو ألف رجل، فحرجوا — بجماعتهم واضطروا إلى اللجوء إلى دار مروان بن الحكم ، أقدم رؤساء الأمويين ، وأكبرهم، وأشهرهم ، وأسنهم وشيخهم ، فحاصره الثوار فكتب مروان إلى الخليفة يخبره بما فيه من ضيق ويقول :" أننا قد

حصرنا ومنعنا العذب (الماء) ورمينا بـــالحبوب (الحجـــارة) ، فياغوثاه " . وبالرغم من أن يزيداً قد سخر من بنى أمية ومواليـــهم الذين لم يستطيعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ، مع أنهم أكـــثر مـــن ألف رجل فإنه قرر أن يوجه جيشاً على الفور ، يقوده عمـــر بـــن سعيد بن العاص ولكن عمرو بن سعيد رفض قيادة هـــذا الجيـــش وذلك حتى يثأر من يزيد عندما عزله عن الولاية فقد خاطب يزيـداً قائلاً : " قد كنت ضبطت لك البلاد ، وأحكمت لك الأمور ، فأمـــا الآن ، إذ صارت إنما هى دماء قريش تهراق بالصعيد ، فلا أحـــب أن أكون أنا أتولى ذلك ، يتولاها منهم من هو أبعد عنهم منـــى " . عندئذ اتجه يزيد إلى خادم قديم من خدام أبيه معاوية ، ثبتت كفايتـه وثبت إخلاصه وصدق نصيحته ، هو مسلم بن عقبه المرى ، وقـد رأى مسلم بن عقبه ، لما طلب إليه يزيد الخروج فى الجيـــش ، أن ألف رجلٍ لا يستطيعون أن يقاتلوا ساعة من نهار ، ولا يجـــاهدون عدوهم ويدافعون عن عز سلطانهم ، هم قوم أذلاء ليسوا أهـــلاً لأن ينصروا إلا أن يجاهدوا أنفسهم فى قتال عدوهم دفاعاً عن سلطانهم حتى يستبين الصابرون الذين يقاتلون على طاعـــة الخليفـــة مـــن الضعفاء المستسلمين ، وهذا رأى – رجل لا يحتوى قلبه علـى ذرة من الرحمة ولا ينطوى طبعه على شئ من اللين وإنما أضمر الشدة والعنف والبأس وخرج بعد أن قال له يزيد :" ويحك ! إنه لا خـــير فى العيش بعدهم أن هلكوا . وبدأ إعداد الجيش ، ولم يلبث أن وقف اثنا عشر ألف رجل من أهل الشام على قدم الحرب بعد أن أخـــذوا

عطاءهم كاملاً ، وأخذ كل جندى مائة دينار وضعت فى يده من ساعته – وهكذا كان المال هو المنفذ والمحرك للمؤامرات السياسية وحتى لتحريك همة الجند ولتحريضهم على القتال .

ولما بلغ أهل المدينة إقبال جيش مسلم ، وثبوا على الأمويين [١] وحاصروهم ولم يكفوا عنهم إلا بعد أن أعطوا عهد الله وميثاقه على ألا يبغوا غائلة ولا يدلوا على عورة ، ثم أخرجوهم من المدينة فتوجهوا إلى الشام ، ومن العجيب أن ترى علياً بن الحسين بن على بن أبى طالب وهو الوحيد الذى نجا من أبناء الحسين يوم كربلاء والذى كان من القرشيين القلائل الذين اعتزلوا الفتنة – نجده يجير عائشة بنت عثمان بن عفان وكانت زوجة مروان ابن الحكم ويتوجه بها إلى الطائف فى حمايته – ولقى مسلم بن عقبه وهو فى طريقه إلى المدينة أولئك الأمويين الهاربين عند وادى القرى ، وقد كان أول الأمر ساخطاً عليهم ، فدعا بعمرو بن عثمان بن عفان أول الناس وقال له :" أخبرنى ما وراءك وأشار عليه " فقال :" لا أستطيع أن أخبرك ، أخذ علينا العهود ألا ندل على عورة ، ولا نظاهر عدواً " فانتهره مسلم ، ولم يمنعه من ضرب عنقه إلا أنه إبن عثمان بن عفان ، فبعث مروان بن الحكم ابنه عبد الملك قبله ، لعل مسلماً يجتزئ [٢] به عنه ، فدخل عبد الملك

---

(١) الأصفهانى – الأغانى جـ١ ص ١٦ .

(٢) أى يتجاوزه هو ويكتفى بمشورة ولده فيتحاشى التعرض له .

واستطاع لحسن الحظ أن يرد غضب مسلم ، ووصف له خطة العمل ، وأشار عليه بما رأى ، فأعجب مسلم بنصائح عبد الملك الدالة على العلم والخبرة ، واتبعها تماماً . وفى ذى الحجة سنه ٦٣هـ كان مسلم بجيشه أمام المدينة معسكراً فى الحرة إلى شمال شرق المدينة وأعطى الثوار مهلة ثلاث أيام ، وقال لهم :" أن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل ، وأنى أكره إراقة دمائكم ، وأنى أؤجلكم ثلاثا ، فمن ادعى وراجع الحق ، قبلنا منه وانصرفت عنكم ، وسرت إلى هذا الملحد (يقصد عبد الله بن الزبير) بمكة ، وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم ". ، ولما مضت الأيام الثلاثة كلمهم مسلم مرة أخرى وطلب منهم الدخول فى الطاعة ، حتى يجعل حد الجيش وشوكته على الملحد الذى جمع إليه المراق والفساق من كل حدب (ناحية) فأجابوا بالإصرار على المقاومة دفاعاً عن المدينة ، بل على قتال جيش مسلم ، أن هو قصد مكة وأراد القتال فيها واستحلال حرمتها ، وإخافة أهلها ، وخاطبوا جيش مسلم بن عقبه وجيشه قائلين " يا أعداء الله " ومن العجب العجاب أن يظهر أهل المدينة استعدادهم للقتال إلى جانب عبد الله بن الزبير إذا قصده مسلم بن عقبه المرى فى مكة ، وابن الزبير قابع فى مكة يتربص وينتظر ولا يهب لنجدة المدينة ومساعدتها ويتركها تلاقى الجيش الشامى بمفردها بدون مساعدته ، فقوة المدينة على أية حال أن لم تكن قوة له على أعدائه فهى على

الأقل لن تكون قوة معادية له ، وفى كسرها كسر لخطـــة الدفـــاع الأول وهزيمةً لمقدمته ، وترك الفرصة للعدو الأموى من تجميـــع وتركيز قوته ضد بن الزبير وحده بمكة بعد الفـــراغ مـــن أمـــير المدينة، وهذان خطأن كبيران اقترفهما عبد الله بن الزبير فى حياته السياسية وإبان حركته الثورية هذه التى نحن بصدهـــا ، وهـــذان الخطأن القاتلان هما : ترك المدينة وعدم مساعدتها فى ثورتها ضد جيش مسلم بن عقبه والثانية وأن كانت خارج موضوعنا ، هى عدم اتفاقه مع حركة المختار بن عبيد الله فى العراق ، بل ومحاربة ابن الزبير للمختار الذى طالما دوخ الأمويين وأنزل بهم الهزائم لصالح البيت الهاشمى بل ولصالح عبد الله بن الزبير نفسه ، وكـــان فـــى قضائه على المختار ، قضائه على آخر خط دفاعى يملكـــه ضـــد الأمويين الذين لم يلبثوا أن تفرغوا له فحرمـــوه أولاً مـــن ثمـــرة انتصاره فى العراق ثم قضوا عليه القضاء المبرم فى عقـــر داره بمكة .

القتال فى الحرة : —

وكان أهل المدينة قد حصنوا ركنها الشمالى المكشوف بأسوار وخنادق ، وذلك بالإضافة إلى الخندق الذى حفره الرسول عليه الصلاة والسلام فى معركة الأحزاب ، وقد [1] أقام الناس على أفواه الخنادق ورتب رماة النبل والحجارة من فوق الآطام (المنازل المبينة بالطوب والحجارة) واستوثقوا من الدفاع وأقام على خطوطهم الرجال والسلاح — وكان جيشهم مؤلفاً من أربعة أقسام ، على رأسها رجلان من قريش ورجل من أشجع ، وعبد الله بن حنظله الغسيل الأنصارى ، وكان بن حنظله الغسيل فى الوقت نفسه القائد الأعلى للجيش وأمير الجماعة كلها . هذا وقد بدأ القتال بهجوم خاطف من فرسان المدينة بقيادة عبد الله بن حنظله الغسيل، والفضل بن عباس بن ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب ،فأنهزم أهل الشام أولاً وانكشف جبهتهم وتقدمت خيل المدينة حتى المكان الذى كان فيه مسلم بن عقبة نفسه الذى كان يحمل على محفة لمرضه وعجزه وهو يحرض على الثبات والجهاد والقتال وكأنه يجاهد فى سبيل الله ، ولكن أهل المدينة هزموا آخر الأمر وقتل كثير من أشراف الأنصار ومن قريش ، منهم عبد الله بن حنظله

---

(1) H.Lammense S.J.Le califat De Yazid LL ER – page 31.

الغسيل نفسه ومعه ثمانية من أبنائه ويقال أن السبب فـــى هزيمـــة جيش المدينة ، إنما جاء نتيجة لخيانة بنى حارثة [1] لأنهم أدخلـــوا فى المدنية من ناحيتهم قسماً من جيش الشام ، ضرب المدافعين من ظهورهم ، وقد حدثت هذه المعركة يوم الأربعاء لليلتين أو ثـــلاث ليالى بقين من ذى الحجة سنه ٦٣ هجرية الموافق ٢٦ أغســـطس سنه ٦٨٣ م هذا ولم يكتف الأمويون بقتل الأنصار والمهاجرين من أهل المدينة المنورة بل دنسوا هذه البقعة المقدسة وانتهكوا حرمتها، فقد أباح مسلم بن عقبه مدينة الرسول والخلفاء ثلاثة أيـــام للجنـــد ينهبون ما فيها من مال وسلاح ويقتلون النـــاس ، وقـــد اختلفـــت الأقوال والروايات فى عدد قتلى يوم الحرة من أهل المدينة ، فيذكر بن [2] العماد الحنبلى أن عدد قتلى أولاد المهاجرين والأنصار قـــد بلغ ثلاثمائة وستة أنفس أما [3] ليعقوبى فيقول :" فلم يبق بها كثـــير أحد إلا قتل " ويذكر بن قتيبة فى كتابة الإمامة والسياسة فى قتلـــى الحرة " انه قتل من أصحاب النبىﷺ يوم الحرة ثمانون رجـــلاً ، ولم يبق بدرى بعد ذلك ، ومن قريش والأنصار سبعمائة ، ومـــن سائر الناس من الموالى والعرب عشرة آلاف وفى رأينا أن روايـــة

---

(١) الطبرى تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٤٣٢

(٢) بن عماد الحنبلى – شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ص ٧٠

(٣) اليعقوبى – تاريخ البلدان جـ ٢ ص ٢٢٣

أهل قتيبة مبالغ فيها إلى حد ما [1] وقد نشأ عن استباحة المدينة من المفاسد والبغى ما لا يوصف ، ويكفى أن نورد ما قاله السمهودى أنه نشأ عن استباحة المدينة ثلاثة أيام ألف مولود غير شرعى ، وبذلك يكون الأمويين قد تجاوزا حدود الإسلام ، بل خرجوا عنه ومرقوا منه مروق السهم من الرمية ، فمن قتل ، إلى اغتيال ، إلى خداع ، إلى غش إلى تعذيب المسلمين ، وقتل أفراد بيت النبوة إلى انتهاك بلدة الرسول ومقر مثواه إلى انتهاك أعراض المسلمين بل إلى ضرب بيت الله الحرام فى مكة فيما بعد ، ذلك البيت الذى حرم الله – بل وعظمة العرب فى الجاهلية قبل أن يبزغ نور الإسلام – فأى إسلام هذا الذى يعتنقه الأمويون ، ولكن الواقع أن هذه قضية سياسية بحتة لا دخل للعقيدة فيها وهذا ما اعتقده الأمويون – المعتدلون وأنصارهم .

وبعد هذه الواقعة بيوم نفذ مسلم بن عقبه المرىء الهدف الذى من أجله فعل ما فعله فقد دعا الناس إلى البيعة وأرغم كبار أهل المدينة على البيعة فى قباء جنوبى المدينة وقد قتل فى هذه المناسبة بعض الثوار يظهر أنهم أصروا على عدم البيعة ليزيد رغم هزيمتهم ، وكان منهم عدد من القرشيين ، وبعد وقعة الحره لم تمتد حياة يزيد بن معاوية كثيراً ، ولا أميره مسلم بن عقبه المرى الذى

(١) فلهزون – تاريخ الدولة العربية ص ٥٥ .

حاول السير إلى مكة للقضاء على حركة عبد الله بن الزبير ولكنه مات بالقرب من مكان يسمى المشلل ، وتولى القيادة مكانه الحصين ابن نمير السكونى وذلك بأمر سابق من الخليفة يزيد ، هذا ولابد أن نعرض هنا بعض الصور لمسلم بن عقبه والتى صورها له المؤرخون الغربيون ، فحتى المستشرقين استغربوا تلك الأعمال التى قام بها هذا الرجل واستنكروا أن تصدر من رجل مسلم ومؤمن بالله ورسوله والإسلام فيقول [١] دوزى فى كتابه .

Dozy: Histoire des musulmans desepagne 1.97s

" ربما لا يكون هناك أحد يمثل العصر القديم والروح الوثنية كما يمثلها مسلم ابن عقبة ، فلم يكن فيه أقل ظل للعقيدة الإسلامية ، ولا كان يقدس شيئاً مما يقدسه المسلمون ، ولذلك كان أشد إيماناً بالخرافات الوثنية ، وكان يؤمن بالأحلام والتنبؤات ، وبالكلمات الخفية التى كانت تأتى من شجر الغرقد ، وقد أبان عن هذا لما تقدم ليزيد فقال له انه لا أحد يستطيع أن يقهر المدينة غيره ، لأنه فيما قال ، رأى فى المنام أنه سمع صوتاً آتياً من شجرة الغرقد يقول : "على يدى مسلم " ويقول موللر : " كان فى نفس مسلم بن عقبه على الإسلام خصوصاً على المسلمين الأولين ، من الحقد ما كان فى نفس شمر بن ذى الجوشن قاتل الحسين ، وبالرغم من أنه كان

---

(١) فلهوزن تاريخ الدولة العربية ص ١٥٥

شيخاً كبيراً ومريضا، فإن أمله الذى كان ينتظره طويلاً ويرحب به لتأديب أولئك الذين كانوا أعداء لكل ما هو وثنى ، رد إليـــه قوتـــه حينا ، وقد خرج فى الجيش ومعه الحصين بن نمير خلفـــا لـــه أن حدث به حدث الموت ، وكان الحصين قبل ذلك بقليـــل ، الـــذراع الأيمن لعبيد الله بن زياد فى الكوفة واشترك فى قتل الحسين وكـــان لا يحس من الاحترام لمسجد الرسول وللكعبة أكثر مما يحسه أمـــام جوزتين صحاوين ، فلأجل نبوءة شجرة الغرقد هذه ، يكون مســـلم وثينا لحما ودما ، وهو لما فى قلبه من بعض أهل المدينة ، ينتظـــر الفرصة لذبحهم والتنكيل بهم ، ومسلم بن عقبه المرى مـــن قبيلـــة غطفان ومعروف جيداً دور قبيلة غطفان فى اشتراكها فى حـــرب الخندق وموقعة الأحزاب وحصارها للمدنية فلعل مسلم بـــن عقبـــة كان يتحين الفرص للأخذ بثأر قبيلته التى هزمت أمام المدينة وفشل هجومها عليها ليحقق هو فى الإسلام ما فشلت فى تحقيقه قبيلته فـــى الجاهلية [1] ولكنا نجمل القول فى أن – مسلم بن عقبه المرى كـــان قائداً حربياً فيه غلظه وجفاء وكان خادماً من خدام الدولة الأمويـــة أحسن معاوية اختياره وأوصى ولده يزيد بالاستعانة به ضد المدينـــة بالذات إذا ثأرت عليه فقد قال له : " [2] إن لك من أهـــل المدينـــة

---

(١) المؤلف – بحث فى الحالة السياسية للمدينة المنورة إبان العصر الأموى .

(٢) ابن طباطبا - الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠١

يوماً، فأن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبه فإنـــه رجـــل قـــد عرفـــت نصيحته " وكان يفكر بعقل الدولة ولا يعرف غير سياستها وهو من هذا الوجه شبيه بالحجاج وزياد بن أبيه ، فقد كان يسئ المعاملة ولا يعفو عن مذنب ولا يتجاوز عن مسيء ، يقتل لأقل هفـــوة ، ولـــم تحول مكانة بعض الناس وحسبهم ولا وصايا الخليفة يزيد بهم مـــن إهانتهم أمثال مروان بن الحكم وعمرو بـــن عثمـــان وعلـــى بـــن الحسين.

وقد ضربت ثورة المدينة فى الحرة ولكن ضربتها الحقيقية إنمـــا كانت يوم أن انتهت الخلافة الشرعية ، [1] بمقتل عثمـــان وانتقـــال الخلافة الجديدة إلى الأمصار – أما الضربة التى ضربتها المدينـــة فى الحرة فلم تأت بتغيرات جوهرية ، فلم تخرب المدينة ، رغم مـــا لحقها من الأضرار ، ولم يلبث أن رجع إليها أهلها الأمويون الذيـــن كانوا قد أخرجوا منها وإن كانوا قد أخرجوا منها مرة أخرى بعـــد ذلك ، وظلت المدينة كما كانت من قبل ، مدينة مرحـــه ومقـــراً لا للتراث الدينى وحده ، بل لأرق طوائف المجتمع العربى وأرقاهـــا ، ولذلك كان يفضل الإقامة بها من يعتزلون الأعمـــال ويحبـــون أن يحيوا حياة اللهو ، وفوق ما تقدم ، فأن من الخطأ أن نتصـــور أن الأنصار كانوا وحدهم هم الذين أصابتهم عواقب وقعة الحرة ، لأنه

---

(١) فنيوزن تاريخ الدولة العربية ص ١٥٨

لا يصح أن نفهم من ذكر اسم الأنصار أنهم وحدهم هم أهل المدينة، وذلك لأن المدينة كانت منذ زمن طويل لم تصبح مدينتهم وحدهم ، فكانوا يقيمون فيها مع المهاجرين الذين كانوا يكافئون الأنصار فى العدد ويزيدون عليهم فى القوة [١] وكانت قريش بين هؤلاء المهاجرين تحتل المكان الأول ، لأن القرشيين كانوا قد هاجروا منذ سنة ٨ هجرية إلى المدينة زرافات كثيرة ، وذلك بعد فتح مكة فضلاً عن المهاجرين الأول مع الذين هاجروا سنة الهجرة مع الرسول ، وصارت عاصمة الدولة هى وطنهم الحقيقى ، وقد اشتركوا فى الثورة على يزيد كما اشترك الأنصار . وكان التمايز بين أشراف الإسلام وأشراف الجاهلية ، وقد كان على كل حال تمايزاً موجودا بينهم ، قليل الشأن ، ولم يكن ليزيد حزب بين أهل المدينة ، ولم يكن هو الممثل للأرستقراطية القديمة ، وأن كان لا ينتمى إليها ، وقد ألفت الأرستقراطية فى الحجاز كله جبهة كاملة معارضة له ، كما ألفت من قبل جبهة معارضة لأبيه معاوية ، فكانت قبائل مخزوم مثلاً ، وهى قبائل نابهة ، زبيرية الهوى تماماً بل لم يكن الأمويون فى المدينة على علاقة طيبة مع يزيد نفسه ولم يريدوا أن يفسدوا علاقتهم بالثوار ، فمالوا إلى مهادنة بن الزبير

---

(١) أفلح المهاجرون فى جعل الخلافة فيهم بعد وفاة الرسول وتوليه أبو بكر وعدم بيعة سعد بن عبادة الخزرجي الأنصارى .

ولذلك غضب مسلم بن عقبه عليهم لأنهم لم يساعدوا ولم يشتركوا معه فى حربه لأهل المدينة – هذا وقد كان مسلم يعتبر أن المسألة كانت فى أن تستعيد العاصمة القديمة للدولة ما كان لها من سيادة ، وأنه توجد بعض الدلائل على أن عبد الله بن الزبير هو الذى حرض الثورة فى المدينة – واعتبر أهل المدينة أن السفيانيين فى دمشق غاضبون ، وأن أهل الشام كانوا يؤيدون الحكومة التى كانت بيدها السلطان دفاعا عن مكان الصدارة الذى بولايتهم ، ولم يكونوا يأبهون بأهمية الحق الشرعى فى الخلافة أى أن نضالاً سياسياً وليس دينياً غير أن مسألة الحق الشرعى هذه [1] وهى فى نظرنا مسألة سياسية محضة ، كانت فى نظر الإسلام ، من حيث هو دولة تيوقراطية جزءاً من الدين . وكان الذين يدعون الحق فى الخلافة يؤيدون مطالبهم بمؤيدات دينية .

وكان يزيد يعتبر غير أهل للخلافة لأسباب دينية أيضاً ، ولكن هذه المبررات الدينية لم تكن على ألسنة زعماء الحركة ، سوى ستار لما وراءها [2] فدعوى الهاشميون أنهم أحق من غيرهم بالخلافة لأنهم أقرب من غيرهم للرسول قد جعل الخلافة إرثيه يرثون الرسول فى منصبه لأنهم أقرب الناس إليه وهو ما لم يؤكده

(١) فلهوزن تاريخ الدولة العربية ص ١٦١

(٢) المؤلف بحث فى تاريخ المدينة المنورة إبان العصر الأموى.

تولية الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان – وإذا كانت الخلافة إرثيه فلماذا يعيبون على معاوية أن بايع لابنه بالخلافة ؟ – كذلك دعوى معارضى يزيد أنه فاسق يلهو ويغرم بالصيد ويشرب الخمر، هذا أمر فعله العباسيون بعد ذلك وهم هاشميون ، فالباعث الحقيقى لهم على الثورة كان هو شهوة المجد والسيادة .

هذا وبعد وقعة الحرة أفلت من نجا من المذبحة من أهل المدينة ومن بقوا أحياء فيها بعد المعركة ، وفروا هاربين نحو الجنوب إلى مكة حيث عبد الله بن الزبير الذى علم بمسير جيش الشام إليه بقيادة مسلم بن عقبه الذى توفى فى الطريق وخلفه الحصين بن نمير السكونى ، فتحصن عبد الله بن الزبير فى مكة وزاد عدد رجاله المدافعون عنها بمن هاجر إليه من المدينة وكذلك بادر خوارج اليمامة بقيادة نجدة بن عامر للدفاع عن البيت الحرام أمام هجوم أهل الشام – كذلك جاء ابن الزبير نجدة لم يكن يتوقعها فقد أرسل النجاشى [1] جماعة من الجيش للدفاع عن الكعبة ، وأعان ابن الزبير بهم فضمهم إلى أخيه مصعب بن الزبير ، فكانوا يقاتلون معه – كذلك قدم الخوارج الازارقة على بن الزبير يريدون مؤازرته ، فقبل مساعدتهم بالرغم من مخالفتهم إياه فى المبدأ كما انضم إلى بن الزبير شخصية كبيرة من أبرز شخصيات ذلك العصر وهو المختار بن عبيد الله الثقفى – الذى ثار فى العراق

---

(١) البلاذرى – أنساب الأشراف القسم الثانى جـ ص ٥١

ضد الحكم الأموى وأخذ على عاتقه مهمة الأخذ بثأر الحسين من قتلته - وقد بدأ القتال فى بداية المحرم سنة ٦٤ هجرية ولم يوفق المدافعون فى أول اشتباك وقع بينهم وقد قتل فيه المنذر ابن الزبير أخو عبد الله واستمر القتال بين الفريقين بقية شهر المحرم وشهر صفر كله حتى ثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأول الموافق السبت ٣١ أكتوبر ٦٨٣ م فقد شب حريق فى أستار الكعبة فتهدمت أركانها من جراء هذا الحريق الذى اختلف المؤرخون فى مصدره فمن قال أن ضرب الكعبة بالمنجنيق من قبل أهل الشام هو الذى أدى إلى ذلك وفى رواية أخرى أن أحد أصحاب بن الزبير أو هو نفسه تسبب فى الحريق بدون قصد منه وبسبب قوة الرياح وسرعتها ، ودام حصار مكة إلى أن بلغها نعى يزيد وقد كانت وفاته فى ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هجرية وقد بلغ خبر موت يزيد، عبد الله بن الزبير قبل أن يبلغ أهل الشام ولم يصدق هؤلاء أول الأمر حتى تأيد لهم الخبر من جهة أخرى ، وعند ذلك شرع الحصين بن نمير يفاوض بن الزبير ، وكان الحصين يريد وهو لم يجد أمامه خيراً من ذلك ، أن يبايع بن الزبير على الخلافة ، إذا قبل ابن الزبير إهدار الدماء التى أريقت فى المدينة ومكة وخرج معه إلى الشام لكى تبقى الشام مقر الخلافة وهذا الشرط يؤيد ويؤكد ما ذكرناه سابقاً أن أهل الشام لم يكن ليهمهم من يلى الخلافة بقدر ما كانوا يريدون المحافظة على مركز الصدارة الذى وصلت إليه ولايته ، فهم يريدون أن تبقى مقراً للخلافة حتى ولو تغير البيت

الأموى الحاكم – غير أن ابن الزبير وأن كان قد قبل الشرط الأول فإنه لم يقبل مسألة انتقاله إلى الشام فقد كان معنى ذلك أن يقضى على نفسه [1] بالانتحار السياسى وفقدان الأنصار – فليس لابن الزبير فى الشام عصبية وأنصار يعتمد عليهم ، كما أن بلاد الحجاز كانت قد عانت كثيراً من الحكم الأموى ، فماذا يكون موقفهم منه لو رأوه يرحل مع الأمويين إلى حاضرتهم وعلى رأس جيشهم لاشك أنهم كانوا يتخلون عنه ، فيفقد بذلك أنصاره وجنده – ولم يكن ابن الزبير ساذجاً إلى هذا الحد كما ظنه الحصين ، فقد كان حريصاً على مشاعر الحجازيين ، فهم أنصاره وعصبيته ، نرى هذا واضحاً فى حواره مع الحصين ، فكان هذا يكلمه سراً فيجيبه بن الزبير جهراً ، فقد كان أنصاره يجلسون على مقربة منه فأراد أن يسمعهم ما يسر خاطرهم فتعمد أن يسمعهم قوله للحصين أنه لا يرضى إلا بقتل عشرة من أهل الشام مقابل كل رجل يقتل من أهل الحجاز ، وكانت حركة بن الزبير قبل كل شئ – هى حركة الحجاز التى تهدف إلى عودة الجاه والنفوذ ومقر الحكم إلى الحجاز كما كان الحال فى عهد الرسول وأبى بكر وعمر وعثمان . ولم يكن ابن الزبير ليأمن وعود الحصين ، ذلك القائد الذى اشترك فى مذبحة كربلاء ومذبحة الحرة والتنكيل بأهل المدينة ثم قدم يغزو مكة ويضربها بالمنجنيق ، وربما اعتقد أنها مكيدة جديدة من مكائد الأمويين وأشياعهم وأعوانهم ، ويؤكد هذا أن الحصين تعهد لعبد

---

(١) فلهوزن تاريخ الدولة العربية ص ١٦٤

الله بن الزبير بأخذ البيعة له من أهل الشام وهو لا يمثـــل البيـــت الأموى ، صحيح أنه يمثل إحدى قبائل الشام ولكنه لا يمثل القـــوى المختلفة لها ، هذا إلى جانب وجود مـــروان ابـــن الحكـــم شـــيخ الأمويين، والذى ما زالت له أطماع فى الخلافة ويترقب الفـــرص للوثوب إليها.

إلى هذا الحد كان ابن الزبير يعتبر خارجاً على الدولة الأموية رافضاً البيعة للخليفة يزيد ، وأن كان بن الزبير قد أعلن خلع هذا الخليفة ، إلا أنه كانت فى عنقه بيعته لمعاوية التى أجبره على أدائها لابنه يزيد تحت ضغط التهديد بالقتل ، وأن كان باستطاعة ابن الزبير أن يتحلل منها لأنها كانت إجبارية غير أنه بعد وفاة يزيد أصبح ابن الزبير فى حل من بيعته ، وقد مكن له أن يعلن نفسه خليفة وأميراً للمؤمنين فى مكة أمران :- أولهما أن الجيش الأموى قام برفع الحصار عن مكة وقفل راجعاً إلى الشام بعد فشل مفاوضاته مع ابن الزبير ، وثانيهما أن الخليفة الأموى الجديد وهو معاوية الثانى بن يزيد كان شاباً ضعيفاً غلب عليه الزهد والتقشف ، وكان يعتقد أن معاوية سلب علىّ بن أبى طالب حقه فى الخلافة وأن أباه يزيد بالتالى لم يكن له حق فيها ، وخطب خطبة تدل على معتقداته فى هذه فقال : " أن جدى معاوية قد نازع الأمر أهله ومن هو أحق به فيه لقرابته من رسول الله ﷺ وهو على بن أبى طالب ، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته فصار فى قبره رهينا بذنوبه وأسيراً بخطاياه ، ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل ، وصار فى قبره رهينا بذنوبه ، وأسيراً بجرمه أن من أعظم الأمور علينا

لسوء مصرعه وبئس منقلبه ، وقد قتل عـــتره رســول الله ﷺ ، وأباح الحرم وضرب الكعبة ، وما أنا بالمتقلد ولا المتحمل تبعاتكم، فشأنكم أمركم ، وهكذا زلزل معاوية الثانى أركان الدولة الأمويــة ، وأنكر على جده معاوية الأول وأباه يزيد حقهما فى الخلافة ، وذكر أخطاءهما ، فأتاح بذلك فرصة ذهبية لمناوئى الأمويين لســحقهم ، والتغلب عليهم ، وخاصة حينما أعلن تنازله عن الخلافة ولزم بيتــه حتى مات بعد ثلاثة اشهر ، ونحن وأن كنا نؤمن بأن لكـــل أجــل كتاب إلا أن وفاة معاوية الثانى سريعاً هكذا ربما يقرب إلى الظـــن أن كبار الأمويين قد تخلصوا منه بالطريقة التـــى يجيدونـــها فـــى الاغتيال بالسم ، حتى لا يقضى على دولتهم ، فينقل الخلافة إلــــى غيرهم بعد هذا الجهاد الطويل ، وحتى لا تنتقل حاضرة الدولة مـن الشام إلى غيره من الأقاليم ، وبذلك بويع لعبد الله بن الزبير خليفــة فى الحجاز وتوالت – عليه مبايعة الأقاليم كلها فلم يبق إلا الشــــام والذى كان حصن الأمويين الحصين ، وحتى الشام لم يخــل مـــن أنصار لأبن الزبير كانوا على هواه ويريدون خلافته ، ويهمنا هنــا مبايعة أهل المدينة لأبن الزبير فأنه لما أعلن نفسه خليفة وطلب من أهل المدينة البيعة هرعوا إلى تأييده ومبايعته فقـــد تطلعـــوا إلـــى الخلاص من الحكم الأموى ، وقد كانت فظائع الحره لا تزال ماثلــة فى أذهانهم لم تمحى آثارها بعد .

هذا وقد أراد ابن الزبير أن يرد اعتبار أهل المدينـــة فـــأمر أخيه عبد الله بن الزبير وإليه الجديد عليها أن ينفى جميع الأمويــن من المدينة ، فأخرجهم جميعاً وسمح لهم بمصاحبة أموالهم ونسائهم وأولادهم ، ورحلوا إلى دمشق بالشام ، وهذا هـــو النفـــى الثـــانى للأمويين من المدينة فقد خرجوا منها أول مرة أثناء ثورة عبـــد الله بن حنظله الغسيل وعادوا إليها بعد وقعة الحره ، ولكن خروجـــهم هذه المرة جاء مصلحة لهم ، وضررا على عبد الله بن الزبـــير ، فبعد وفاه يزيد بن معاوية وتنازل ولده معاوية الثانى عـــن الحكـــم تخلخل البيت الأموى فى الشام تخلخلاً كبيراً ولم توجد شـــخصية أموية كبيرة تملأ هذا الفراغ ، ولكن إخراج الأمويين من المدينـــة وعلى رأسهم مروان بن الحكم أكبر شخصية أموية فى ذلك الحين، سد هذا الفراغ ، وضيع الفرصة على ابن الزبير بعد أن كان قـــد أصبح قاب قوسين أو أدنى من وصوله إلى منصب الخلافة علـــى جميع أطراف الدولة الإسلامية بـــدون منـــازع – [١] وإن كـــانت الحوادث تروى أن كبار الأمويين أنفسهم وعلى رأسهم مروان بـــن الحكم كان من رأيهم البيعة لابن الزبير لـــولا منـــاصرة أتباعـــهم القدماء لهم ، أمثال الحصين به نمير السكونى الذى حنق على بـــن

---

(١) فلهوزن – تاريخ الدولة العربية ص ١٧٣

الزبير لرفضه شروطه لمبايعته ، وعبيد الله بن زياد . وفى مؤتمـر الجابية اختير مروان بن الحكم خليفة أموياً جديداً ورأساً لأسـرة أموية جديدة بعد انهيار الفرع السيفانى الذى أسسه معاويـة الأول ، وانتهى بوفاة معاوية الثانى ، وقد مكن مروان بن الحكـم لنفسـه بالشام فقد هزم أنصار بن الزبير فى موقعه مرج راهط ، ثم تمكـن مروان بن الحكم من السيطرة على مصر ، وأخذ البيعة من أهلـها، وهزم محاولة لابن الزبير لاحتلال فلسطين بقيادة أخيه مصعـب ، ثم بدأ بعد ذلك يهاجم عبد الله بن الزبير ، فوجه حمله إلى المدينـة لاحتلالها وإخراجها من تبعية عبد الله بن الزبير.

⚜ هزيمة الأمويين عند المدينة :ـ

بعد نجاح الأمويين فى الشام وإخراجه نهائياً من نفوذ عبد الله بن الزبير وبعد نجاحهم أيضاً فى صد حملة مصعب بن الزبير على فلسطين جهز مروان جيشاً عدده سبعة آلاف مقاتل وولى قائداً عليه حبيش بن دلجة القينى.(١) ووجهه إلى الحجاز للاستيلاء على المدينة ثم مكة ، وقد سار هذا الجيش دون أن يلقى مقاومة حتى صار على مقربه من المدينة ، وقد استنجد عبد الله بن الزبير بواليه على البصرة وهو الحارث بن أبى ربيع فأرسل جيشاً عدته ثلاثة آلاف مقاتل وعلى رأسه " الحنتف بن السجف التميمى ، ولكن قبل وصول هذا المدد تمكن الجيش الشامى الأموى بقيادة حبيش بن دلجة من الدخول إلى المدينة فى رمضان سنه ٦٥ هجرية ، ونزل دار مروان بها ، وخطب على منبر رسول الله ﷺ ، فذم أهل المدينة ، لأنهم ، كما قال – خذلوا أمير المؤمنين عثمان بن عفان وأظهر الشدة نحوهم ، ثم خرج ابن دلجة لقتال حبيش بن الزبير القادم من البصرة والتقى الطرفان عند مكان يسمى الربذه وهو ضاحية من ضواحى المدنية ولم ينتظر جيش بن الزبير ليقاتله فى المدينة خوفاً من ثورة أهلها عليه من الداخل بينما جيش بن الزبير

(١) ابن كثير – البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٦٠

يقاتله من الخارج وبدأ القتال بنصر الجيش الأموى بقيادة بن دلجه على جيش البصرة بقيادة الحنتف ولكن الأخير كان قد أعد كمينـــا فاجأ الجيش الأموى من الخلف فانهزم الأمويون هزيمة منكرة وقتل قائدهم حبيش ابن دلجة تحت سنابك الخيل وتفرق أصحابه هـاربين وبعد موقعة الربذة هذه، وانتصار جيش بن الزبير علـــى الجيـش الأموى دخل الحنتف المدينة بالأسرى فاستقبله أهلها بترحاب شـديد وفرحوا به وسموه الحتف ، ذلك لأن أهل المدينة اعتـــبروا هــذه الموقعة أخذاً بثأرهم مما جرى لهم فى موقعة الحرة التـــى حدثـت قبل نحو عامين من موقعه الربذه وما ذكره الرواة هنا أنه كان مــن بين الهاربين العائدين إلى الشام يوسف بن الحكـــم الثقفـــى : أبــو الحجاج وابنه الحجاج ، وكان هذا فى شبابه - فأردف يوسف ابنــه خلف فرسه. وكان الحجاج يقول فيما بعد ، ما أصعب الهزيمـــة ، لقد كنت ورجل آخر - يعنى إياه فى جيش ابن دلجة فانـــهزمنا - فركضنا ثلاثين ميلا ، وأنه يخيل إلينا أن رماح القوم فى أكتافنا .

هذا ولم يعترى اليأس الخليفة التالى عبد الملك بن مــــروان بعد هزيمة جيش والده فى الريذه ، [1] فقد أرسل فى العام التـــالى جيش آخر وجهته الحجاز أيضاً وجعل قيادته لابن عمه عبد الملــك بن الحارث بن الحكم ، فوصل هذا الجيش إلى وادى الفـــرى فـــى

---

(١) دكتور / ضياء الدين الريس - عبد الملك بن مروان

شمال الحجاز ، ولكن لم تذكر الأخبار كم كان عدد هذا الجيش ، كما لم يرد أنه تقدم أكثر من ذلك . فالذى يظهر أن عبد الملك لم يقصد من إرسال هذا الجيش أن يكون غزواً حقيقياً لقلب البلاد ، ولكنه كأن أشبه بمناورة حربية ، بقصد الإرهاب والتخويف وإظهار القوة.

رأى عبد الله بن الزبير أن من صالح حركته أن يبايعه ابن عباس ومحمد ابن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، ولكنهما أبيا عليه ذلك ، فقد لزمتهما بيعة يزيد الذى حاول التقرب منهما ، ونجح فى التقرب من محمد بن الحنفية ، ودعاه إلى دمشق حيث وصله أجازه وان كان قد فشل فى اجتذاب عبد الله بن العباس إليه – هذا وقد كان لامتناع ابن الحنفية عن البيعة لابن الزبير سببا فى نشوب عداء شديد بينهما . وقد كان بن الزبير حريصاً على الفوز ببيعته ، باعتباره زعيما لبنى على بن أبى طالب ، ولبنى هاشم عامه ، ولذا بدأ بن الزبير يجهر بعدائه لابن الحنفية بل وحدد إقامته ليجبره على البيعة له ، وكان موقف محمد بن الحنفية هذا سبباً فى ظهور طائفة الكيسانيه والتى تزعمها المختار بن عبد الله الثقفى ، – فى العراق . والتى لم يفلح ابن الزبير فى الاستفادة من جهودها ، بل وعاداها وقضى عليها وقتل قائدها المختار الثقفى الذى قام بخدمات جليلة للبيت الهاشمى خاصة ولكل مناوئى البيت الأموى عامة ، فقد قضى على قتله الحسين بن على جميعهم ، وكان على استعداد لينظم إلى حركة عبد الله بن الزبير لولا موقف الأخير العدائى من محمد بن الحنفية فقد قلب عليه المختار الذى أعلن ولاءه لمحمد وتمكن من إلحاق الهزيمة بجيش أموى كبير

يقوده عبيد الله بن زياد قاتل الحسين والذى لقى حتفه فى معركة نهر الخازر من جيش المختار هذا وأرسلت رأسه إلى محمد بن الحنفية وعلى بن الحسين – هذا وبدلا من أن يوحد ابن الزبير جهوده مع المختار قاومه وحاربه وتمكن من القضاء عليه ، وبذلك أصبح وجها لوجه أمام الأمويين الذين تفرغوا له وتخلصوا من معظم مشاكلهم ليواجهوا بن الزبير المنهك القوى وليتمكنوا من القضاء عليه فى مكة ، ونهاية ابن الزبير معروفة فلا داعى لتكرارها إنما الذى يهمنا هو أن الحجاج بن يوسف الثقفى وهو القائد الذى قضى على عبد الله بن الزبير فى مكة ، تجنب فى أثناء زحفه إلى مكة الطريق الذى يمر بالمدينة لأنه يعرف تماماً شعور المدينة العدائى للأمويين فرأى أنه يكرس مجهوده كله للقضاء على ابن الزبير بمكة وتم له ما أراد ، ثم أخذ البيعة لعبد الملك بن مروان من أهل مكة ، ثم رحل إلى المدينة فدخلها بدون مقاومة طبعاً ، وولاه عبد الملك حكمها بالإضافة إلى ولاية مكة . فأقام بها ثلاثة شهور [1] يتعبث بأهل المدينة ويتعنتهم ، وبنى بها مسجداً فى بنى سلمه ، فهو ينتسب إليه واستخف بأصحاب رسول الله ﷺ فختم على أعناقهم " واستمر الحجاج واليا على الحجاز واليمن ثلاثة أعوام حتى مات بشر بن مروان والى عبد الملك على البصرة ، فولى عليها الحجاج ، فرحل إلى العراق.

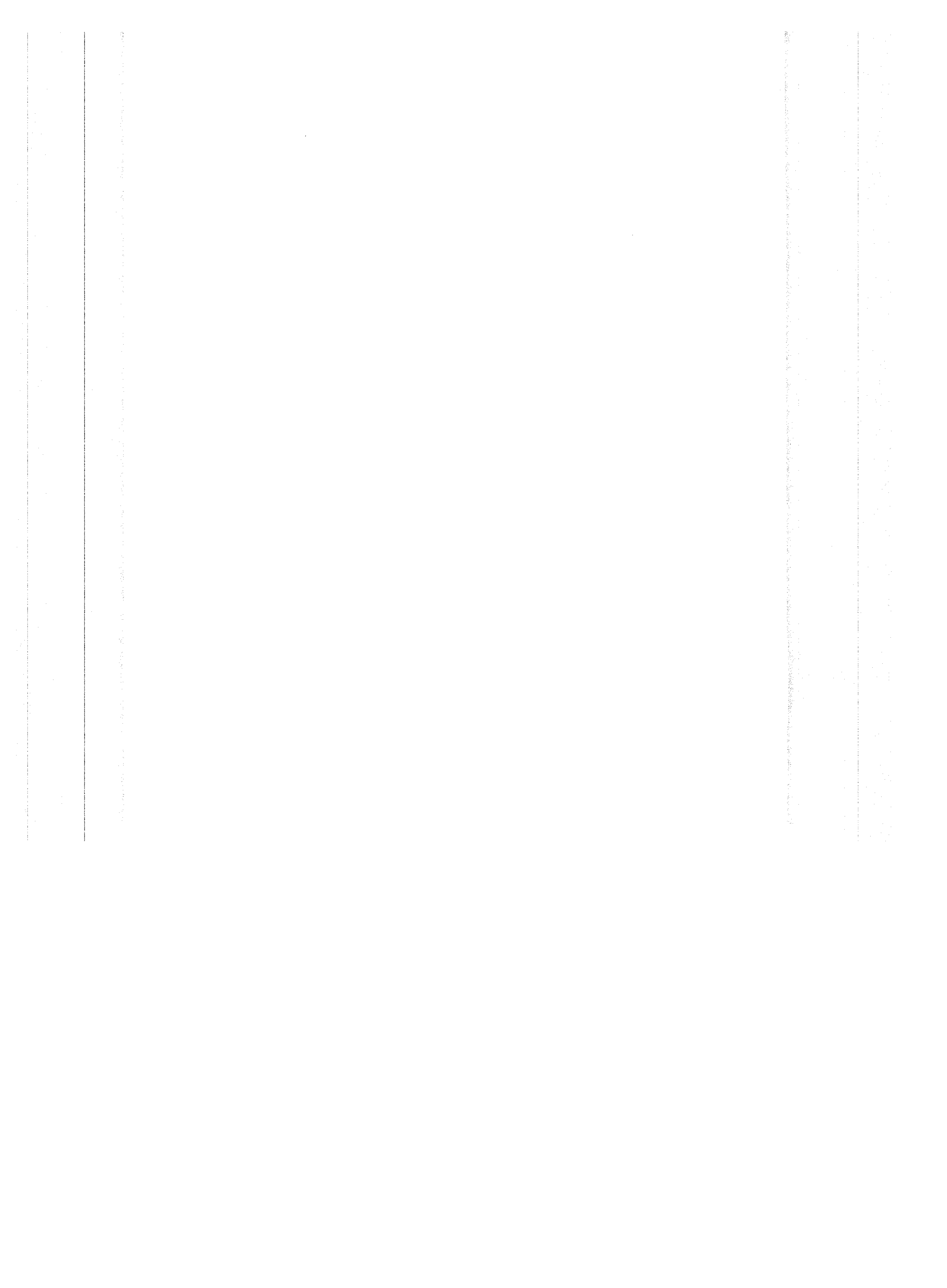
* * * * * * * * * * *
* * * * *

---

(١) الطبرى – وتاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص ٣٥

الفصل السادس

سياسة الولاة الأمويين
فى المدينة



الفصل السادس

✤ سياسة الولاة الأمويين فى المدينة :ـ

لما استتب الأمر لمعاوية كخليفة للدولة العربية الإسلامية ، جعل ولاية المدينة من نصيب الأمويين عادة ، ولكنه لم يكن ليمكن لهم فى تثبيت دعائم سلطانهم فيها ، وكان لا يلبث أن يعزلهم ، وكان يهمه كثيراً أن يشرف عليهم إشرافاً دقيقاً ، ولا يترك لهم الأمور على غاربها ، بل كثيراً ما كان يوقع بينهم ليضمن عدم تحالفهم عليه حتى لا يعوقوه عن تنفيذ مآربه ، ومثال ذلك أن معاوية حاول الإغراء والإيقاع بين سعيد بن العاص والى المدينة ومروان بن الحكم بأن كتب للأول يأمره بمصادرة أموال الثانى ، فلم يفعل ، فعزله ثم ولى مروان وأمره أن يصادر أموال سعيد ولما هم بذلك ذكره سعيد بموقفه منه يوم أمره معاوية بمثل ما أمره به هو فعدل مروان عن ذلك ، وكتب لمعاوية يعبر عن تعجبه أنه يضغن بعض الأمويين على بعض ، ويدخل بينهم القطيعة والشحناء ، فرد عليه معاوية متنصلاً من ذلك .

وسعيد بن العاص أول من ولى المدينة فى العصر الأموى ثم تلاه – مروان بن الحكم الذى لم تكن له السيطرة التى كانت له أيام خلافة عثمان بن عفان ، فلا عجب أن نظر مروان إلى معاوية نظرة بعين الحقد وعدم الرضا وكثيراً ما عارضه ووقف فى سبيله فى كثير من الأمور – وكان مروان بن الحكم واليا على المدينة حينما أراد معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد من أهلها ، ولكن مروان يخفق فى ذلك سواء أكان عن عجز منه ، أو زهدا فى ولاية يزيد إذ كان يطمع فيها لنفسه ، فعزله معاوية وولى سعيد بن العاص بدلاً منه ، والذى أراد أن يحقق ما فشل فى تحقيقه مروان ، فكتب رسالة إلى معاوية تعد تقريراً عن الموقف، وطلب منه إرسال الجنود للاستعانة بهم على أخذ البيعة بالقوة أو يحضر بنفسه ، واستعمل الشدة والعنف مع أهل المدينة عامة ، وأبناء كبار الصحابة خاصة ، ولكن هذه السياسة لم تجدى أيضاً فى الوصول إلى غايتها – ثم توفى معاوية ، وكان قد عين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان وهذا الوالى كان على عكس سلفه لا يميل إلى الشدة والعنف بل رأى أن يأخذ الأمور باللين لعله يجدى فى إتمام الأمور بدون استعمال القوة ، ورفض مشورة مروان بن الحكم الدموية التى كان ينصح فيها

بقتل معارضى البيعة حتى ولو كانوا كبار أبناء الصحابة كالحسين وغيره – وطبيعى أن يعزل الوليد ابن عتبة عن منصبه كوالى للمدينة عندما تمكن كل من عبد الله بن الزبير والحسين بن على من الإفلات منه والخروج من المدينة إلى مكة دون المبايعة ليزيد ، ويتولى عوضاً عنه عمرو بن سعيد بن العاص الذى أدى تهاونه فى أمر عبد الله بن الزبير إلى زيادة أمره وتمكنه من العمل على خلع طاعة يزيد ولما تنبه آخر الأمر لذلك وأرسل قوة للقبض على ابن الزبير تنفيذاً لأمر الخليفة هزمت هذه القوة وقبض على قائدها عمرو بن الزبير وهو أخو عبد الله بن الزبير وأعدم – وقد نجحت سياسة بن الزبير فى إقصاء هذا الوالى ، فقد عزله يزيد أملاً فى أن يكف ابن الزبير عما هو بصدده حين يرفع عنه ما زعم من ظلم وقسوة عمرو بن سعيد بن العاص ، ثم عاد الوليد بن عتبة مرة ثانية إلى ولاية المدينة ،ولكنه عدل عن تسامحه الأول الذى تسبب فى ازدياد قوة بن الزبير ، ولجأ إلى سياسة الحزم والشدة – فطلب ابن الزبير من يزيد إقالة هذا الوالى الظالم حتى تستقيم الأمور ويستتب الأمن ، فعزل وجاءت ولاية عثمان بن محمد ابن أبى سفيان بعد عزل الوليد ، غلطة سياسية كبرى فلم يكن

هذا الوالى أهلاً لهذا المنصب وكان قليل التجارب فأدت سياسته إلى ثورة المدينة الكبرى التى طردت هذا الوالى مع طردهم من بنى أمية من المدينة ، ثم كانت موقعه الحرة ، والحصار الأول لابن الزبير فى مكة ، ثم رفع الحصار عنه بعد وفاة يزيد ، وارتفاع شأنه فى بلاد الحجاز ومبايعة المدينة له ، فيعين على المدينة أخيه عبيد الله بن الزبير والياً عليها ، وقد قام هذا الوالى الزبيرى بنفى بنى أميه النفى الثانى من المدينة ، هذا النفى الذى كان سبباً فى تثبيت أركان الدولة الأموية فيما بعد ، وانهيار حكم عبد الله بن الزبير ولما استعاد الأمويون سلطانهم على بلاد الحجاز ومكة والمدينة وذلك بفضل قائدهم المشهور الحجاج بن يوسف الثقفى [1] عينه الخليفة عبد الملك بن مروان والياً على الحجاز ، فعامل أهل المدينة معاملة شديدة قاسية وتعنتهم وأهان بعض ما بقى من أصحاب الرسول إلى أن نقل إلى ولاية العراق، فخلفه عمر بن عبد العزيز وهو خير من تولى من الولاة الأمويين على المدينة المنورة .

---

(١) تولى طارق بن عمر على المدينة ثم عزل وضمت ولاية المدينة إلى الحجاج بالإضافة إلى مكة - محمود رزق سليم - الحجاج بن يوسف الثقفى .

ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة :ـ

بعد أن نقل الحجاج بن يوسف الثقفى إلى ولاية العراق استعمل الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز واليا على الحجاز (المدينة مكة والطائف) وكان عمر يرى أن الوليد قد حكم الأمصار عن طريق عماله حكماً شديداً يتخلله كثير من القسوة والظلم ... فلم يجاريه هو وامرائه ، بل كانت له طريقته فى الحكم والإدارة ، فاشترط على الوليد قبل أن يتولى الإمارة أن تترك له حرية العمل ، ثم دخل المدينة واليا على الحجاز سنة ٨٧ هجرية وكان عمره لا يتجاوز خمسة وعشرين عاماً – ونزل فى المدينة دار جده مروان – ثم افتتح حكمه بأن دعا بعض علماء المدينة وفقهاءها ، فلما دخلوا عليه أجلسهم ، ثم حمد الله واثنى عليه ، ثم قال : " إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً على الحق ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم ، فإن رأيتم أحد يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لى ظلامه فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلّغنى " ...

وهذه حادثة فريدة لم يسبقه إليها أى من ولاة الأمويين ، تلك السياسة الجديدة التى سار عليها عمر بن عبد العزيز ، وهى إدخال مبدأ الشورى فى الحكم وإعطاء أهل المدينة نوعاً من الحكم الديمقراطى، والمشاركة بالرأى فى النظر فى أمورهم ، وبالرغم من غنى عمر وتأنقه وارتدائه أحسن الملابس وأثمنها وهو وال على المدينة فقد سار فى المدينة أحسن سيرة وعامل أهلها معاملة حسنى واحترم فقهاءها وعلماءها ، فقد كان حكيماً متواضعاً يزور الناس فى بيوتهم [١] – والتفت عمر بن عبد العزيز إلى تعمير المدينة والاهتمام بها ، فمهد دروبها والطرق المؤدية إليها ، والطرق المختلفة فى أنحاء الحجاز وحفر الآبار وعمل بالمدينة الغواره والتى يستقى منها أهل المدينة واجرى إليها الماء ، وأمر لها بقوام ، وأكبر إصلاح أتمه فى المدينة هو بناء مسجدها من جديد [٢] إذا أمره الوليد بن عبد الملك فى السنة التالية لولايته المدينة أى يهدم المسجد النبوى ، ويهدم بيوت

---

(١) دكتور مصطفى الوكيل ومحمد صبيح / عمر بن عبد العزيز ص ٩٥

(٢) عبد السلام هاشم حافظ / المدينة المنورة فى التاريخ ص ٧٠

أزواج الرسول ويدخلها فى المسجد ، ففعل ثم قام بشـــراء مـــا حول المسجد من الدور ، دار عبد الله بن مسعود ودار شر حبيل بن حسنه ، ودار العباس بن عبد المطلب ، ودار مســـعود بـــن محرمه ودار مليكه بنت خارجه بن سنان ، وابتنيـــت الحجـــرة المقدسة وهى حجرة السيدة عائشة والتى يوجد بها قـــبر النبـــى وأبو بكر وعمر ، على خمسة أركان حتى لا يستقبلها الناس فـــى صلاتهم – ومن أعمال عمر ابن عبد العزيز السياسية العظيمـــة أن أبطل سب على بن أبى طالب على المنابر على نحو ما كـــان يفعل الأمويين ، وأجزل العطاء للمساكين فاغنـــاهم ، [١] ولـــم يؤخذ على عمر بن عبد العزيز ، غير ما اشتهر به من العـــدل والإحسان والبر والتقوى ، غير أن حادثة من غير قصد بـــاتت

---

(١) ومن أعمال عمر بن عبد العزيز التى تدل على مدى عدله وحســـن سياســـته ، ذلـــك الإجراء المالى - كانت أرض فدك قرب المدينة مما أفاء الله به على رسوله ، ثم انتقلت بعـــد وفاته إلى والى الأمر من المسلمين فتولاها الخلفاء من بعده واصطفاها الأمويون ، فأقطعـــها معاوية لمروان بن الحكم ، ثم آلت آخر الأمر إلى عمر بن عبد العزيز ، فردها إلى ما كانت عليه أول أمرها أعطاها لآل النبى عليه السلام وهم العلويون ، وبذلك الغى عمر بـــن عبـــد العزيز ما كان قد جرى عليه أبو بكر وعمر ومعنى هذا أنه لم يكن يتبعهما اتباعا تاماً .

فلهوزن / تاريخ الدولة العربية ص ٢٨٧ .

تقض مضجعه كلما تذكرها ، وما كان يتـــورع عــن ارتكـــاب أمثالها وأكثر منها معظم ولاة الأمويين السابقين ، ذلك أن الوليـد بعث إلى عمر بن عبد العزيز أن يضرب خبيب بن عبد الله بــن الزبير لأنه سب الأمويين ، فنفذ عمر أمر الخليفـــة ويظـــهر أن خبيباً كان ضعيف البنية واهن الجسم فأفضى هذا الضرب إلـــى موته ، ففزع عمر لموته ودفع ديته - ورجل من هذا الطــــراز كان من شأنه أن يحسن إدارة الولايـــة ، فانتشـــر صيتـــه فـــى الأمصار واتجهت أنظار العراقيين الذين ذاقوا الأمرين من تسلط الحجاج بن يوسف عليهم ، اتجهت أنظارهم إلى الـــهجرة إلـــى المدينة ومكة هرباً من ظلم الحجاج ورغبة فى عـــدل عمـــر ، فغضب الحجاج لذلك ، وكان عمر ابن عبـــد العزيـــز يبغضـــه لفظائعه التى كان يرتكبها فى حكمه للولايات ، فكتب عمر إلـــى الوليد يخبره بظلم الحجاج وسفكه الدماء وما يفعله بأهل العـــواق وخوفه عواقبه ، وبلغ ذلك الحجاج فحقد على عمر ، وكتب إلـــى الوليد : يخبره أن مثيرى الشغب والمارقين من أهل العراق قـــد رحلوا إلى مكة والمدينة ، وقد ساعدهم على ذلك عمر بن عبـــد

العزيز ، وخوفه من عواقب هذه الهجرة ، وأوعزالـــى الخليفــة بعزل عمر ، فعزله وولى مكانه على المدينة عثمان بن حبيــان ، فأشتد هذا الوالى على من هاجر إلى المدينـــة مـــن العراقييـــن وأخرجهم منها عنوه ، هذا وقد دامت ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة حوالى ستة سنوات من سنه ٨٧ - ٩٣ هـــ .

ومن ولاة الأمويين على المدينة ، إبراهيم بيـــــن هشـــام المخرومى ، وذلك فى عهد هشام بن عبد الملك سنه ١١٤ هـــ . أى أن بنى مخزوم اشتركوا فى حكم المدينة ، ثم خالد بن عبـــد الملك بن الحرث بن الحكم (١١٨ - ١٢١ هـــ) ثم محمد بـــن هشام بن إسماعيل خال الخليفة هشام ابن عبد الملك ، وفى عـــهد هذا الوالى الأخير قامت ثورة زيد بن على بن الحسين ، وهـــى آخر ما قام به العلويون والشيعة من ثورات بالمدينة فـــى عـــهد الدولة الأموية .

****

*****

الفصل السابع

موقف العلويين والشيعة والدعوة للبيت الهاشمى
فى المدينة أواخر العصر الأموى



الفصل السابع

موقف العلويين والشيعة والدعوة للبيت الهاشمى فى المدينة أواخر العصر الأموى

كانت المدينة هـــى المقـــام الرئيســـى لكبـــار العلوييـــن ورؤسائهم وأفراد أسرهم ، بينما كان جل شيعتهم فـــى العـــراق عامة وفى الكوفة على وجه الخصـــــوص ، فمعظـــم حركـــات العلويين إنما كانت خارج المدينة ، وفى إقليم الكوفـــة بـــالعراق بالذات ولكنهم حتماً كانوا يتحركون من المدينة عندما تنبث بذور الثورة لديهم وبعدما تكون خطتها قد رسمت وبقيت على التنفيـــذ فيخرجوا منها خارج نطاق المدينة إلى العراق ، حيث الرجـــال والأموال ، هذا وفى أواخر العصر الأموى اتبع الولاة الأمويون سياسة أشبه ما تكون بسياسة الاستعمار فى عصرنا الحـــاضر ، سياسة " فرق تسد " فقد طالما أوقعوا بين فرعى البيت الهاشـــمى أولاد الحسن وأولاد الحسين ، فتنابذوا واختلفوا وبالتالى ضعـــف أمرهم ولم يتحدوا ويصبحوا يداً واحدة وقلباً واحـــداً للمطالبـــة

بحقهم المهضوم ورفع الظلم والاغتصاب الأموى عنهم .[١] وقد بدأت ثورة يزيد بن على بن الحسين قبل عام ١٢٢ هجرية فقد حدث أن وفد هو وآخرين على خالد بن عبد الله القسرى بالعراق فاجازهم ورجعوا إلى المدينة فلما تولى يوسف بن عمر كتب إلى الخليفة بأن خالداً أجاز زيداً وصحبه ، فطلب هشام من والى المدينة محمد بن هشام بن إسماعيل فى هذا الوقت أن يسيرهم إليه فى دمشق ، فسألهم عن ذلك فأقروا ، فأمرهم بالذهاب إلى العراق لإكمال التحقيق فى هذه القضية هذا وقد قيلت رواية أخرى وهى تروى مدى خبث سياسة الأمويين فى التفرق بين بنى هاشم من أبناء الحسن والحسين ، وهو أن الوالى الأموى كان يجمع بين زيد وبن عمه عبد الله بن جعفر بن الحسن ليتشاتما أمامه ويوغلا فى الخصام والتنافر ، فحقدا عليه وصمموا على الثورة ، هذا ولا يهمنا الروايات بقدر ما تهمنا النتيجة وهى أن أهل الكوفة من الشيعة امسكوه عن الخروج ، وقالوا أنهم يرجون أن يكون المنصور وأن يكون ذلك الزمان

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ

الذى يهلك فيه بنو أمية ، وأن سيادة بنى أمية فى الكوفة لا تستند إلا إلى عدة قليلة من جند الشام ، لا يستطيعون أن يقفوا أمام مائة ألفا من أهل الكوفة يضربون دونه بسيوفه ، وصدقهم زيد وأن أخذ لنفسه الحيطة بأن أخذ يغير من مقر سكنه ، واستمرت إقامته فى الكوفة نحو عشرة أشهر اتخذ خلالها الاهبه للثورة وضم لنفسه أنصاراً فى البصرة والموصل أيضاً ، وبايعه الناس فى الكوفة حتى حصر ديوانه خمسة عشر ألف مقاتل ، ولما صاغ زيد نص بيعته التى يبايع عليها الناس وهى : " أنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسولهﷺ ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم الفىء بين أهل السواد ، ورد المظالم وإقفال المجمر (إعادة من طالت غيبته فى حرب بعيداً عن أهله ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقناه " فحاجة بعض الناس وسألوه عن رأيه فى أبى بكر وعمر ، فقال زيد قولاً كريماً فيهم ، ففارقه بعضهم ونكثوا بيعته وأدى ذلك إلى ظهور جماعة الرافضة – هذا وقد لبث يوسف بن عمر والى الكوفة غافلاً عما يدبره زيد زمناً طويلاً لا

يدرى عن الحركة شيئا ولكن من يُدعى سليمان بن سراقه البارقى أخبره بذلك وخشى زيد أن يؤخذ على غره قبل أن تكتمل استعداداته فقرر التعجيل بالثورة وحدد لها ليلة الأربعاء أول صفر ١٢٢ هـ – ٦ يناير ٧٤٠ م ولكن الوالى يوسف بن عمر كان قد أخذ احتياطاته اللازمة فقد جمع أهل الكوفة فى المسجد الأعظم وحصرهم بطائفة من الجند يحرسونهم مخافة أن ينضموا إلى ثورة زيد ، هذا وقد أراد زيد أن يفك حصار من بالمسجد فجمع مائتين وثمانية عشر رجلاً وهاجم المسجد ولكن من به تقاعسوا عن نصرته ، ولم ينهض إلى معاضدته من قصدهم زيد من أنصاره السابقين فأيقن زيد بأن ثورته قد كتب عليها الفشل وأن مصيره لن يختلف كثيراً عن مصير جده الحسين بني على فأستبسل فى القتال وهزم بقوته الضعيفة أكثر من ألفين من جند الشام فردهم يوم الأربعاء وثبت يقاتل يوم الخميس أيضاً هو وأصحابه القلائل أمام رماة النشاب من القيقانيه والبخارية [١] ويظهر من جنسية هؤلاء الرماة أنهم كانوا

(١) المؤلف - بحث فى الحالة السياسة فى المدينة المنورة فى العصر الأموى

من الفرس وكما نعلم أن بلا الفرس اهواتـــهم شــيعية غــير أن الشيعة كما ثبت من الحوادث المتشابهة والتى تكررت من خذلان أهل البيت النبوى أنهم لم يكونوا مخلصى النية ، فيبدأون بنوبـــة حماس طاغية سرعان ما تخبو وتنطفئ فيسلمون من أخرجـــوه من العلويين إلى أعدائه حيث يلاقى مصيره المحتوم ، – حــدث أن أصيب زيد فى مساء اليوم التالى للثورة بسهم فـــى جــانب جبهته اليسرى ، فرجع ومعه أصحابه فدخلوا الكوفـــة ، ومـــات زيد من السهم وحاول أنصاره إخفاء جثته وتغيير معـــالم قــبره خوفاً من التمثيل به ، ولكن جثته وقعت فى يـــد أهـــل الشـــام ، وصلب جسده فى الكوفة ، وأما رأسه فقطع وأرسل إلى هشـــام بن عبد الملك فى الشام ، فأمر به فنصب علـــى بـــاب مدينـــة دمشق، ثم أرسل به إلى المدينة مكث مصلوباً حتى مات هشام ، وأما ابنه يحيى فقد كان غلاماً حدثـــاً واســـتطاع الفـــرار إلـــى خراسان ، ذلك المعقل الذى انطلقت منه الشرارة التى دمـــرت الملك الأموى، وهدت أركان هذه الدولة وقضت عليها – فأقـــام مختفياً فى مدينة بلخ سنين كثيرة ، ولكنه غرف بعد ذلك فصـــار

يتنقل من مكان إلى مكان ، حتى قتل سنه ١٢٥ هـ - فى عهد الوليد بن يزيد وهو يحارب من كانوا فى طلبه للقبض عليه . ومع أن ثورة زيد هذه قد انتهت هذه النهاية المؤلمة فقد كان لها شأنها ، لأن ثورات شيعيه أخرى قد أعقبتها [١] ، وأمام هذه الثورات سقطت الدولة الأموية ، ولم يلبث بعد مقتل يحيى أن ثار أبو مسلم الخراسانى لينتقم له فتم له ما أراد وقتل قاتليه وذلك بعد موقعة الزاب الأكبر سنه ١٣٢ هـ .

****

****

تم بحمد الله

(١) فلهوزن - تاريخ الدولة العربية ص ٣٢٧

مراجع البحث

أولاً : مراجعة عربية قديمة :-

١- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الأمم والملوك .
مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩م .

٢- ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد عبد الكريم الشيبانى الجزرى الملقب بعز الدين).
الكامل فى التاريخ المطبعة المنيرية ١٣٤٨ هـ .

٣- اليعقوبى تاريخ البلدان .

٤- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى) .
أنساب الأشراف تحقيق محمد حميد الله طبعة دار المعارف .

٥-ابن كثير القرشى (عماد الدين إسماعيل بن عمر).
أنساب الأشراف .

٦-ابن قتيبه الدينورى (أبى محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٠ هـ)
الإمامة والسياسة صححه محمد محمود الرافعى ١٩٠٤-١٣٢٢ هـ).

٧-المقريزى (تقى الدين أبو محمد أحمد بن على) النزاع والتخاصم بين بنى أميه وبنى هاشم طبعة ليون ١٨٨٨) .

٨- ابن عبد البر . (أبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر).

٩-الاستيعاب فى معرفة الأصحاب القسم الأول تحقيق على محمد البخارى - نهضة مصر .

١٠- نصر بن مزاحم المنقرى - وقعة صفين تحقيق عبد السلام هارون. المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر ١٣٨٢ هـ .

١١- ابن حزم الأندلسى . جمهرة أنساب العرب / تحقيق ليفى بروفنتال - القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٤ .

١٢- ابن طبا طبا (ابن الطقطقى) . الفخرى فى الآداب السلطانية

١٣- ابن عبد البر . الاستيعاب فى معرفة الأصحاب . القسم الأول / تحقيق محمد البجاوى . - القاهرة : دار نهضة مصر .

١٤- المسعودى - مروج الذهب ومعادن الجوهر .

١٥- ابن العماد الحنبلى . شذرات الذهب فى أخبار من ذهب.

١٦- أبو الفرج الأصفهانى . الأغانى

١٧- مقاتل الطالبين . القاهرة : المطبعة الحيدرية فى النجف الأشرف ، ١٣٥٣هـ .

١٨- عبد الرحمن بن خلدون . مقدمة بن خلدون .

١٩- اليعقوبى . تاريخ البلدان

ثانياً : مراجعة عربية حديثة

١-إبراهيم الإبيارى . معاوية (سلسلة أعلام العرب) .

٢-إبراهيم جلال . قصص من الأغانى . - القاهرة . دار نهضة مصر.

٣- أحمد إبراهيم الشريف . مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول . ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٦٥

٤- أحمد أمين - فجر الإسلام . - القاهرة : مكتبة النهضة المصرية .

٥- سيده إسماعيل الكاشف . الوليد بن عبد الملك (سلسلة أعلام العرب).

٦- ضياء الدين الريس . عبد الملك بن مروان (سلسلة أعلام العرب).

٧- عباس محمود العقاد . عبقرية الإمام على . القاهرة . دار الهلال

٨- عبد السلام هاشم حافظ . المدينة المنورة فى التاريخ- القاهرة دار الجهاد .

٩- فلهوزن (يوليوس): تاريخ الدولة العربية / ترجمة عبد الهادى أبو ريده .

١٠- على حسنى الخربوطلى . عبد الله بن الزبير (سلسلة أعلام العرب) .

١١- المختار بن عبيد الله الثقفى (سلسلة أعلام العرب).

١٢- محمد جمال الدين سرور . الحياة السياسية فى الدولـــــة العربيـــة الإسلامية – القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٦٠ .
١٣- محمد صبيح . عثمان وعلى
١٤- محمود رزق سليم . الحجاج بن يوسف الثقفى .
١٥- مصطفى الوكيل ، محمد صبيح . عمر بن عبد العزيز .
١٦- الموسوعة الذهبية .
١٧- الموسوعة العربية الميسرة .

ثالثاً : مراجع أوروبية

1) La mmense (Henri)

35- Etudes sur la Regne du calife omaiyade moauia l-ER.

Par le p, Henri Lameness, s.s J. 1908.

36- La caliphate de Yazid l-ER

Extract des melanges de la Fasculte odrientale de

Betroth Imprimerie catholic Beyroutth (Syrie) 1921.

37- Le calife walid et la pretendu.

Partage de la mosquee des omayyades, a Damas.

1925.

* * * * * * * * * * * *

* * * * * *

The political state of El Midina El Monawra During Omayad reign

I dealt in this research with the political state of El-Midina El Monawara – the city which the history's period of losing its position as a capital of the Islamic Arabstate' and a center of governing since the prophet had emigrated' till 34 H. when the fourth caliph' Aly Ebn Abi Talib' made El Kofa the capital' out of El Higaz district.

During my study to this subject' it was clear that El Midina itself helped put itself in that bad condition, when it refused to help the caliph Osman Ebnaffan, when he was exposed to the revolution, and more over, it had taken apart in that revolution,
and did not prevent Osman's murderers, who had assassinated him in that sacred place.
El midina did not guess that the coming caliph, wouldnot make ti the capital, and so'woud lose its previous position,So El-midina made some dangerous tries, to restore its previous posit ion but in vain. It was center of El Hassan Ibn Aly ebn abi talib and his brothers, after his resigning to the caliph moawya 40H. El midina was a stage for the confusion which had been planned against the omeyad state, It was the sole fort which refused El yazid as a caliph, after his father's death. It helped El Hossein to go to El kofa to revolt against the omayad. El midna itself revolted, led by one of its sons, abdalla abn hanzala El ghasil. But it did not succeed in its

help to El Hossein as well as revolution Was defeated in El harra battle in 63 H.

El midina did not live at ease and revolted again as was in the side of abd Allaibn El zobir in Mecca. El madina kicked out all the Omayads it resisted an Omyad army'sent by the Omayad caliph MarwantIbn El Hakam from Damascus, and defeated it, but at last El Hagag conquered El Midina and seized it as well as he killed Abd Alla Ibn El Zobir.

Since that time'El Midina political state settled' and did not play any main part on the stage of the Islamic Arab state El Midina was a centre for education, science , religion, rich people and lovers of peace. There were places for music, singing, and there were many singers and dancers. The city was a shelter for those who hated the political tiresome.

El Midina was governed by the Omayad rulers who were different in severity and goodness according to the political state and the demands of peace and confusion. Most of those rulers, governed and treated the people of El Midina with severity, but in a short period' glittered in the Omayad's history, some famous rulers like Omer Ibn Abd El Aziz who had ruled a short period.helped to prevail justice .

After that- El Midina melted in big Islamic state and it had not any political activity, but it was Known as the prophet city.

* * * * *

* * *

